مَرَّ وهذا الأثرْ

المجلد الأول

لِحَياتِكَ مَعْنًى

الأثر الصالح في حياة الإنسان

مدارج

هذا الكتاب وقف لله تعالى

مَرَّ وهذا الأثرْ

لِحَياتِكَ مَعْنًى

الأثر الصالح في حياة الإنسان

المجلد الأول

دار مدارج للنشر

هذا الكتاب وقف لله تعالى

النسخة التأليفية الأولى ٢٠٢٦

إهداء

إليك، وأنت تتساءل عمّا تستطيع أن تقدمه في الأيام التي بقيت لك. ربما رأيت أعمالًا كبيرة، فاستصغرت ما في يدك، وربما أثقلتك مسؤوليات بيتك حتى ظننت أن الخير يبدأ بعيدًا عنك، وربما تذكرت تقصيرًا مضى، فتمنيت لو عاد بك العمر لتصنع شيئًا آخر.

نهديك هذه الصفحات بمحبة، ونرجو أن تعينك على رؤية أبواب الخير القريبة منك، حق تؤديه، وقلب ترفق به، وعلم تتعلمه وتعمل به، وأذى تكفّه عن عباد الله. نحن وإياك نحتاج إلى عون الله، ونرجو أن يصلح قصدنا، ويغفر تقصيرنا، ويبارك في القليل الذي نقدر عليه.

وحين تدعو الله أن يحسن عملك، اذكرنا ووالدينا وكل من أعان على وصول هذا الكتاب بدعوة صالحة. نسأل الله أن يستعملنا وإياك في طاعته، وأن يجعل حضورنا رحمة، وأقوالنا صدقًا، وما نتركه في حياة الناس خيرًا.

جهدٌ مشتركٌ، نسألُ اللهَ فيه الإخلاصَ والقبولَ

فهرس المجلد

مقدمة ٧

الباب الأول: الغاية التي تمنح الحياة معناها ١٠
الفصل الأول: عبودية الله ومعنى الحياة ١٠
الفصل الثاني: عمارة الأرض في هداية الوحي ١٦
الفصل الثالث: العمل وآثاره وما لا تراه العيون ٢١
الفصل الرابع: لسان الصدق والاقتداء بالأنبياء ٢٥

الباب الثاني: صلاح القلب وصحة العمل ٢٩
الفصل الخامس: الإخلاص وتجديد القصد ٢٩
الفصل السادس: المتابعة والعلم قبل المبادرة ٣٢
الفصل السابع: الصدق والأمانة والإحسان ٣٦
الفصل الثامن: الرياء والعجب والمن والأذى ٣٩

الباب الثالث: تربية النفس على المبادرة والثبات ٤٣
الفصل التاسع: العمر والعلم والمال والبدن ٤٣
الفصل العاشر: المبادرة ومقاومة التسويف ٤٦
الفصل الحادي عشر: المحاسبة قبل العمل وبعده ٥٠
الفصل الثاني عشر: الاقتصاد والدوام ٥٣
الفصل الثالث عشر: الصحبة والنصيحة والمراجعة ٥٦

الباب الرابع: الحقوق التي يبدأ بها الأثر ٥٩
الفصل الرابع عشر: حق النفس والقيام بالفرائض ٥٩

الفصل الخامس عشر: الوالدان والزوجان والأولاد ٦٢
الفصل السادس عشر: الأرحام والجيران وأهل الصحبة ٦٦
الفصل السابع عشر: تزاحم الحقوق وواجب الوقت ٦٩

الباب الخامس: نفع الناس والتعاون على البر ٧٣
الفصل الثامن عشر: تفريج الكرب وقضاء الحوائج ٧٣
الفصل التاسع عشر: الإصلاح والنصيحة والشفاعة ٧٦
الفصل العشرون: كفالة الضعفاء وصون كرامتهم ٧٩
الفصل الحادي والعشرون: المعروف اليومي وكف الأذى ٨٣
الفصل الثاني والعشرون: الإحسان والتعاون في المجال العام ٨٦

الباب السادس: العلم والعمل والكفايات التي تحتاجها الأمة ٩٠
الفصل الثالث والعشرون: التعلم النافع والعمل بالعلم ٩٠
الفصل الرابع والعشرون: التعليم والدعوة وبناء القدرة ٩٣
الفصل الخامس والعشرون: الكسب والمهنة والمصلحة العامة ٩٧
الفصل السادس والعشرون: الأمانة في المسؤولية المشتركة ١٠٠

الباب السابع: الأثر السيئ وإصلاح ما أفسده الإنسان ١٠٤
الفصل السابع والعشرون: القول والقدوة اللذان ينشران الشر ١٠٤
الفصل الثامن والعشرون: ظلم الأفراد والإضرار بالجماعة ١٠٧
الفصل التاسع والعشرون: محاسبة الضرر والتوبة منه ١١٠
الفصل الثلاثون: من التعثر إلى الاستقامة ١١٤

الباب الثامن: تطبيقات معاصرة للنفع في الحياة ١١٨
الفصل الحادي والثلاثون: اختيار الحاجة بالتشاور والمعرفة ١١٨
الفصل الثاني والثلاثون: مبادرات التعليم والمهارات ١٢١

الفصل الثالث والثلاثون: خدمة المجتمع بالوقت والخبرة والتقنية ١٢٥
الفصل الرابع والثلاثون: تقويم النتائج وتطوير التجربة ١٢٩
خاتمة: خير تفعله وأنت على الطريق ١٣٤
ثبت المصادر والمراجع ١٣٧

مقدمة

قد يغيّر إنسان شيئًا في حياتك ولا يعرف أنه فعل. يعلّمك معلم كلمة تحتاج إليها بعد سنوات، أو ينصفك مسؤول حين تكون عاجزًا عن الدفاع عن حقك، أو تعتني بك أم في مرضك فلا يبقى في ذاكرتك من تلك الأيام إلا رفقها. تمر المواقف، ويبقى بعض ما صنعته في فهمك وثقتك وعاداتك. وحين تتأمل ذلك تعرف أن الأثر يبدأ في الحياة، وأن له صورًا أقرب إلينا من الأسماء الكبيرة والمشروعات البعيدة.

نحن نؤثر حين نتكلم وحين نصمت، وحين نعطي وحين نمنع، وحين نؤدي ما علينا وحين نتركه. وقد يصل خيرنا إلى من نعرف، وقد يمتد إلى من لم نلقه. وربما يتسع ضرر كلمة لم نتثبت منها، أو عادة سيئة جعلناها مقبولة في بيت أو عمل. لذلك لا يكفي أن نسأل عن بقاء الأثر، بل نسأل قبل ذلك عن صلاحه، وعن الحق الذي نقوم به، وعن القصد الذي يحملنا عليه.

قال الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. هذا هو السؤال الذي يعيد ترتيب ما نطلبه من الحياة. ليس كل عمل كثير عملًا حسنًا، وليس كل ما أعجب الناس مرضيًا عند الله. وقد يكبر عمل في أعين أصحابه ويهملون

لأجله حقًا لازمًا، وقد يكون عمل خفي أقرب إلى الصدق وأعظم نفعًا ممن تصدروا للثناء.

ومعنى الحياة عند المسلم متصل بعبوديته لله. يعبده بما شرع، ويؤدي حقوق خلقه، ويسعى في مصالحهم من الطريق الذي أذن به. فلا تصبح الخدمة الاجتماعية بديلًا من الصلاة، ولا تصبح كثرة الصلاة عذرًا في الظلم أو الغش. تتصل عبادة القلب باستقامة اليد واللسان، ويدخل البيت والسوق ومجلس العلم والطريق في مواضع الامتحان اليومي.

هذه المعاني تسع صاحب المال ومن قلّ ماله، والمتعلم ومن لا يزال يتعلم، ومن تفرغ لعمل عام ومن شغلته رعاية طفل أو مريض. لا نعرف قدر الإنسان عند الله من عدد من عرفوا اسمه. ولا نملك أن نقول عن حياة مسلم لا نحيط بعمله إن وجوده وعدمه سواء. إنما ندعو أنفسنا إلى اغتنام القدرة، وترك الغفلة، والقيام بما يلزمنا، ثم التوسع في الخير بحسب الاستطاعة.

ومن هذا المدخل نبدأ: نعرف الغاية، ونصلح القصد، ونتعلم ما يصحح العمل، ونعطي الحقوق مراتبها. ثم ننظر إلى نفع الناس، والتعليم، والكسب، والمسؤولية، وما أتاحته الوسائل المعاصرة. ونقف كذلك عند الضرر والتوبة؛ لأن إصلاح ما أفسدناه من

أصدق ما نقدمه، ولأن حياة جديدة في الطاعة قد تبدأ باعتراف هادئ وخطوة تصحيح.

أنت لا تحتاج إلى أن تنتظر الصورة المثالية عن نفسك حتى تعمل. تحتاج إلى صدق مع الله، ومعرفة بما تستطيع، وصبر على تعلم ما تجهل. وربما كان أول أثر صالح تصنعه اليوم أن يستريح منك من تأذى، أو يجدك من احتاج إليك، أو تؤدي أمانة طال انتظارها. ومن أحسن العمل في يومه، فقد وضع أساس الخير الذي يرجو بقاءه بعد رحيله.

الباب الأول: الغاية التي تمنح الحياة معناها

الفصل الأول: عبودية الله ومعنى الحياة

كان معاذ بن جبل رضي الله عنه رديف النبي ﷺ حين سأله عن حق الله على عباده. لم يكن السؤال عن عدد ما يبنيه المرء، ولا عن مقدار ما يجمع، وإنما عن الأصل الذي تستقيم به حياته كلها. قال رسول الله ﷺ: «فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا». في هذا الحق تبدأ معرفة الإنسان بنفسه؛ فهو عبد لربه، مخلوق لعبادته، ومفتقر إلى هدايته وعونه.[1]

وقد بيّن القرآن هذه الغاية بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. فإذا أراد المسلم أن تكون لحياته قيمة، لم يبحث عن معنى منفصل عن هذا الأصل. يسأل عمّا يحبه الله ويرضاه، ويجعل عمله تابعًا لأمره، ويرجو ثوابه. هذه العبودية تحفظه من أن يصبح عبدًا لتقدير الناس، أو لنجاح مادي يتبدل، أو لصورة يريد أن يظهر بها ولو خالفت حقيقته.

---

1 البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، حديث ٢٨٥٦، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه. النص.

عبادة تتصل بأعمال اليوم

عرّف ابن تيمية العبادة بأنها «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة». وذكر معها الصلاة والزكاة، وصدق الحديث وأداء الأمانة، وبر الوالدين، والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين، كما ذكر أعمال القلب من المحبة والخشية والتوكل والرجاء. يجمع هذا البيان ما قد تفرقه عاداتنا؛ فصلاح المعاملة داخل في العبادة، كما أن عبادة القلب والجوارح لا تختزل في حسن المعاملة وحده.[2]

حين يخرج الإنسان إلى عمله يستطيع أن يصحب هذا المعنى معه. يحفظ الوقت الذي التزم به، ويبين عيب السلعة، ويعدل بين من تحت مسؤوليته، ويتعلم ما يمنع خطأه من الإضرار بالناس. لا تحتاج هذه الأعمال إلى اسم جديد كي تدخل في الطاعة، وإنما تحتاج إلى أن تكون صحيحة، وأن يؤديها صاحبها محتسبًا ما عند الله. وقد يعتاد المرء مسؤولية نافعة حتى ينسى فضلها، فيعيدها صدق الاحتساب إلى موضعها في قلبه.

ومع ذلك لا يصح أن يقال إن كل نشاط نافع بحسب تقديرنا عبادة مقبولة بمجرد وجود منفعة فيه. للمقصد حكم، وللوسيلة حكم،

---

2 ابن تيمية، العبودية، ضمن مجموع الفتاوى، ج ١٠، افتتاح بيان معنى العبادة؛ النص الإلكتروني يعرض الموضع في ص ١٤٩–١٥٠. المصدر.

وللحقوق المصاحبة حكم. قد ينفع عمل بعض الناس ويظلم آخرين، وقد يقصد صاحبه به خيرًا ويباشره من مال لا يحل له. أما العمل الصالح فيطلب فيه صلاح القصد والطريق معًا. والنية الحسنة لا تجعل الاعتداء عدلًا، كما أن سلامة الإجراء لا تغني عن إخلاص القلب.

إن فهم هذه الصلة يغير نظرتنا إلى الروتين. شراء طعام الأسرة، وإيصال الوالد إلى حاجته، ومراجعة درس الطفل، والوفاء بوعد في العمل، أمور قد لا تستوقف من يبحث عن إنجاز استثنائي، لكنها تتصل بحقوق حقيقية. والبيت الذي يجد أهله فيه رحمة وعدلًا قد ينتفع بصلاح صاحبه أكثر مما ينتفع بخطاب طويل عن خدمة الإنسانية.

الفرائض قبل صورة الإنجاز

جاء في الحديث القدسي الصحيح: «وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضت عليه». يمنع هذا الأصل أن ننشغل بنافلة ظاهرة عن فريضة ثابتة. لا يستقيم مشروع خير يقوم على تضييع الصلاة، أو استهلاك مال النفقة الواجبة، أو إهمال من لا يجد

قائمًا على حاجته إلا صاحبه. وما فرضه الله علينا ليس عائقًا أمام أثرنا، بل هو أول موضع يُطلب فيه صدقنا.[3]

ومن التطبيق القريب أن يراجع المرء يومه قبل أن يضيف إليه التزامًا جديدًا. إذا كان عليه دين حالّ يستطيع أداءه، فلأداء الحق أولوية على تبرع يضيع معه حق صاحبه. وإذا كانت أمه تحتاج إلى خدمة لا تجدها، فلا تكون كل دعوة تطوعية بعيدة أولى من خدمتها. هذه ليست دعوة إلى انغلاق الإنسان في شأنه، وإنما إلى أن يتسع خيره على أساس سليم.

والفرائض لا تنحصر في أعمال فردية معزولة. فمن العلم والخدمة والرعاية ما تحتاج الأمة إلى قيام من يكفي به. غير أن معرفة هذه المسؤوليات تحتاج إلى تمييز بين ما يلزم كل مكلف، وما يقوم به بعض القادرين فيكفون غيرهم. وسنعود إلى ذلك في موضع العلم والكفايات؛ إذ لا يكفي أن نطلق على كل فكرة نافعة وصف الواجب ثم نطالب الجميع بها.

---

3 البخاري، الصحيح، كتاب الرقاق، حديث ٦٥٠٢، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهو حديث قدسي. النص.

قيمة لا يصنعها التصفيق

قد تضعف همة الإنسان حين يقارن عمله بما تعرضه الشاشات. يرى آثارًا واسعة، ويتذكر ما أنجزه في يومه من أمور محدودة، فيحسب أنه لم يقدم شيئًا. والصحيح أن كثرة الانتشار وصف لمدى وصول العمل، وليست حكمًا على منزلته عند الله. قد يكون المعروض عملًا نافعًا يستحق الشكر، وقد يكون وراء الصورة نقص لا نعرفه؛ وفي الحالتين لا يصح أن نجعل الصورة ميزانًا وحيدًا لحياتنا.

للعبادة الخفية معنى كامل، ولحفظ النفس عن معصية معنى، وللتوبة معنى، وإن لم يكن لها جمهور. لا نحتاج إلى تسجيل كل إحسان حتى يثبت أنه وقع. والله يعلم ما نبذله وما نعجز عنه، وما أخلصنا فيه وما خالطه من تقصير. واستحضار علمه يوقظ الحرص على العمل، ويخفف التعلق بالشهادة البشرية التي قد تأتي وقد تتأخر.

وقد يجتمع في العمل الواحد نفع خاص ونفع متعدّ. يتعلم المرء حتى يعبد الله على بصيرة، ثم ينفع بعلمه من يسأله. يكسب ليعف نفسه ويقوم على أهله، ثم يسهم في خدمة يحتاج إليها المجتمع. ولا يلزمه أن يهدم أحد الجانبين ليصح الآخر. المطلوب أن يصلح ما بينهما، وأن يعرف أين تنتهي قدرته وأين يبدأ حق غيره.

ما الذي يتغير حين تصح الغاية

إذا استقرت الغاية، صار السؤال اليومي أدق. بدل أن يسأل الإنسان عن العمل الذي يجعله يبدو نافعًا، يسأل عمّا ينبغي له أن يؤديه بالفعل. وقد تكون الإجابة إصلاح عادة في بيته، أو تعلم حكم يحتاج إليه، أو إنجاز مهمة أهملها، أو مشاركة في حاجة عامة. ويصبح ترك فعل محرم قرارًا إيجابيًا في حياته، لا فراغًا يحتاج إلى تبرير.

لا يعني ذلك أن تزول الغفلة بمجرد قراءة المعنى. قد يعرف الإنسان الحق ويؤخر العمل به، وقد يتعب أو يضعف أو يخطئ. لكن معرفة الغاية تعطيه طريق الرجوع: يعود إلى ربه، ويصحح قصده، ويستدرك ما يستطيع. فلا يحصر نفسه في ماضٍ قصير، ولا ينتظر شعورًا دائمًا بالحماس حتى يستقيم.

وحين يقال لك إن لحياتك معنى، فالمقصود معنى يوجّهك ويحمّلك مسؤولية تستطيع القيام بها، ويفتح لك رجاء فيما عند الله. أنت عبد مأمور بما تطيق، مسؤول عمّا كُلّفت، مدعو إلى الإحسان. ومن هنا يبدأ الأثر الصالح الذي نرجو أن نصنعه في أنفسنا وفيمن حولنا.

الفصل الثاني: عمارة الأرض في هداية الوحي

ذكر الله دعوة صالح عليه السلام لقومه فقال: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٦١]. يرد الحديث عن الأرض في الآية بين الأمر بالتوحيد والدعوة إلى الاستغفار والتوبة. وهذا السياق أصل في فهم عمارتها؛ فلا تفصل قدرة الإنسان على التصرف فيها عن مسؤوليته أمام خالقها.

اختار الطبري في تفسير ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ معنى جعلهم عمارًا فيها وإسكانهم فيها أيام حياتهم. ونقل عن مجاهد ما يتصل بالإعمار فيها. وذكر القرطبي معاني أخرى، منها جعل الناس سكانًا وعمارًا، ومنها الأمر بما يحتاجون إليه من بناء وغرس. فاللفظ له بيان عند المفسرين، ولا يجوز أن يحمل وحده كل تصور معاصر يطلق عليه اسم التنمية أو الحضارة.[4،5]

---

4 الطبري، جامع البيان، تفسير هود ٦١. الاقتباس هنا من تفسير الطبري نفسه، دون تصحيح مستقل لجميع الأسانيد التي جمعها. المصدر.

5 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تفسير هود ٦١؛ لبيان الأقوال في الاستعمار، ولا ينسب ما يورده من أقوال إلى النبي ﷺ. المصدر.

من السكن إلى المسؤولية

الإنسان يعيش في الأرض ويحتاج إلى طعام ولباس ومسكن وأمن، ويجري كثير من حصول ذلك على أيدي غيره. يزرع هذا، وينقل ذاك، ويعلّم ثالث، ويداوي رابع. وحين تصل هذه الأعمال إلى أصحاب حاجتها على وجه مشروع، يكون فيها من مصالح الناس ما يفسر عناية الشريعة بالكسب، والعدل في التبادل، ومنع الغش، وحفظ الحقوق.

ليست عمارة الأرض دعوى تجعل رغبات الإنسان مرجعًا نهائيًا للخير والشر. فقد يتقدم مشروع في حساب الربح ويزيد معه التلوث أو الظلم أو إهدار المال. وقد يكون المبنى جميلًا ولا تتحقق فيه منفعة مأمونة. لذلك يحتاج الحكم على العمل إلى النظر في حقيقته، ممّ يقوم، ولمن ينفع، وما يترتب عليه، وهل يتضمن اعتداءً أو تفويتًا لحق واجب.

قال الله تعالى في وصية قارون: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٧٧]. تربط الآية الانتفاع بما آتاه الله بالدار الآخرة والإحسان وترك الفساد. وهكذا لا يُذم المال لذاته، ولا تمدح قوته لذاتها، وإنما ينظر إلى طريق اكتسابه واستعماله، وإلى ما يحمله صاحبه من شكر أو بغي.

عمل نافع في قصة يوسف

حين عبّر يوسف عليه السلام رؤيا الملك، لم يقف البيان عند الإخبار بالسنين المقبلة. ذكر القرآن ما أرشد إليه من الزرع، وحفظ غالب الحصاد في سنبله، وتقدير الاستهلاك في سنين الشدة [يوسف: ٤٧-٤٩]. ثم ظهر في طلبه تولي خزائن الأرض وصف الحفظ والعلم: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]. يجمع الموقف بين معرفة معتبرة، وتدبير مورد يحتاج إليه الناس، ومسؤولية تتطلب أمانة.

القصة خبر وحي عن نبي، فلا يُسوّى علمه بتخمين بشري ولا تدّعي خطة معاصرة لنفسها ضمانًا يشبه خبره. لكننا نتعلم منها أن النفع قد يأتي في تدبير الغذاء وحفظه، وأن الخبرة والأمانة يحتاج بعضهما إلى بعض. من يملك الأمانة ويجهل العمل يحتاج إلى التعلم والمعونة، ومن يملك الخبرة ويخون قد تتحول قدرته إلى سبب ضرر أوسع.

ويظهر هذا المعنى في الإدارة اليومية. فالمسؤول الذي يمنع إتلاف طعام صالح بإصلاح طريقة تخزينه، والمهندس الذي يكشف خطرًا قبل أن يتأذى به الناس، والمحاسب الذي يظهر عجزًا ليُعالَج مبكرًا، يعملون في مصالح حقيقية. وهذه أمثلة لتطبيق معنى الإحسان والأمانة، ولا تنسب تفاصيلها الإدارية إلى نص القصة.

الغرس شاهد على اتساع النفع

قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له به صدقة». يظهر في هذا الحديث نفع قد يجتمع مع حاجة الزارع إلى الكسب، وقد يصل إلى مخلوق لم يتوجه الزارع إليه باسم معين. وتتسع دائرة المعروف حتى تشمل ما تأكله الطيور والبهائم.[6]

لا يحتاج المسلم، ليحب هذا العمل، إلى أن يتوهم أن كل غرس مناسب في كل مكان. اختيار النوع، وتوفر الماء، وسلامة موضع الجذور، وحقوق المارة، مسائل عملية يتوقف عليها تحقق النفع. فمن غرس في طريق ضيق فأضر بمن يمر، أو استهلك موردًا مشتركًا بلا حق، احتاج إلى تصحيح فعله. العبرة بالإحسان الذي يقع، لا بصورة الغرس وحدها.

ولهذا لا ينحصر معنى المحافظة على الموارد في حملات موسمية. ترشيد ما يهدر في البيت والعمل، وإصلاح الخلل قبل تفاقمه، والعناية بمرفق عام وفق صلاحية صاحبه، أعمال تدخل في ترك الفساد وحفظ المصالح بقدر حقيقتها. ولا يلزم من ذلك نسبة كل

---

6 البخاري، الصحيح، كتاب المزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، حديث ٢٣٢٠، من حديث أنس رضي الله عنه. النص.

نظرية بيئية إلى الشرع؛ لكل دعوى فنية دليلها، وللقيم الشرعية موضعها الذي يضبط الاختيار.

عمارة لا تزاحم الآخرة

من الخطأ أن يتخذ الإنسان خدمة الأرض حجة للانصراف عن عبادته، ومن الخطأ كذلك أن يجعل طلب الآخرة ذريعة إلى إضاعة ما اؤتمن عليه في الأرض. قد يتعبد المسلم بالتعلم والكسب والنفقة والرعاية، وتبقى له عبادات مخصوصة لا تستبدل بهذه الأعمال. فالصلاة صلاة، والصدقة صدقة، وأداء الأمانة واجب في محله، ولا يملك صاحب نشاط نافع أن يعيد تعريف دينه وفق النشاط الذي يحب.

وإذا نظر إلى مهنته على هذا الوجه، لم يحتج إلى أن يكون كل الناس على مثاله. قد يكون نفعه في الزراعة، ونفع غيره في التعليم، وثالث في إصلاح الآلات، ورابع في الرعاية المنزلية. يحتاج المجتمع إلى تنوع أعمال صحيحة تتعاون، لا إلى أن يتنافس الجميع على باب واحد طلبًا للاعتراف.

ومعيار البداية هنا واضح: تعرّف الحاجة التي تحسن القيام بها، وتحقق من مشروعية طريقها، وأدّ ما عليك بإتقان تستطيع بلوغه، واستعن بأهل الخبرة فيما يجاوز معرفتك. ثم راجع ما يحدث للناس بسبب عملك. حين يكون هذا حاضرًا، يصبح الحديث عن

عمارة الأرض مسؤولية تمارس، ويظهر أثره في أمان وصدق وكفاية ورحمة.

الفصل الثالث: العمل وآثاره وما لا تراه العيون

أراد بنو سلمة أن ينتقلوا إلى قرب مسجد رسول الله ﷺ، وكانت بقاع حوله قد خلت. فلما بلغه ذلك قال لهم: «يا بني سلمة، ديارَكم تُكتب آثاركم». دلّهم على خير في خطواتهم التي تتكرر إلى الصلاة. لم تكن تلك الخطوات بناءً يحمل اسمهم، ولا خبرًا يتحدث به الناس، ومع ذلك كانت مكتوبة.[7]

يقرّب هذا الموقف معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ [يس: ١٢]. ذكر ابن كثير في تفسير الآثار ما يبقى من أعمال الإنسان، وذكر آثار الخطى إلى الطاعة أو المعصية، وبيّن اتصال المعنيين. لا تنحصر الآية في الوقف ولا في ما يقع بعد الوفاة؛ فالعمل الحاضر وما ينشأ عنه داخلان في المحاسبة.[8]

---

7 مسلم، الصحيح، كتاب المساجد، حديث ٦٦٥، قصة بني سلمة من حديث جابر رضي الله عنه. النص.

8 ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تفسير يس ١٢؛ في معنى العمل والآثار والخطى. لا نجزم هنا بسبب نزول خاص للآية. المصدر.

صور الأثر ومراتب المسؤولية

قد يكون الأثر شيئًا محسوسًا، كإصلاح طريق أو توفير جهاز يحتاج إليه مريض. وقد يكون معرفة أو سلوكًا: يتعلم شخص كيف يقرأ، أو يكتسب عامل عادة التثبت، أو يجد طفل في اعتذار أبيه مثالًا على الرجوع إلى الحق. وقد يتمثل الأثر في ضرر مُنع؛ غش لم يمر، وخصومة لم تتسع، وسر لم يُفش. وليس من العدل أن لا نرى من الخير إلا ما أضيف في صورة بناء أو مال.

ويختلف اتصال الإنسان بالنتيجة. فقد يباشر العمل بنفسه، أو يدل عليه، أو يعين صاحبه، أو يقتدى بفعله. ويثبت الحديث الصحيح مسؤولية الدعوة إلى الهدى أو الضلالة، وأن للداعي مثل أجور من اتبعه أو مثل آثامهم، من غير أن ينقص ذلك مما لهم أو عليهم شيئًا. أما تحميل الإنسان كل حادثة وقعت بعده، لمجرد أنه كان حاضرًا في أول الطريق، فليس معنى الحديث؛ لا بد من صلة معتبرة بفعله ودعوته.[9]

ومن ثم ينبغي أن تكون محاسبتنا دقيقة. المعلم مسؤول عن أمانة ما يعلّم، وعن تصحيح خطئه إذا علمه. وليس مسؤولًا عن كل اختيار مستقل يتخذه طالب لم يدعه إليه. وصاحب الوسيلة النافعة

---

9 مسلم، الصحيح، كتاب العلم، حديث ٢٦٧٤، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. النص.

ينظر فيما يعلم أنه ييسره من خير أو شر، ولا يدّعي أن الوسائل محايدة في كل استعمال، ولا يحمل نفسه ما لا علم له به ولا قدرة على منعه.

الأثر والذكر والقبول

الأثر هو ما يحدث بسبب العمل، والذكر ما يقوله الناس عن صاحبه، والقبول أمره إلى الله. قد تجتمع الثلاثة على خير، وقد يفترق بعضها عن بعض. وربما وصلت منفعة إلى مئات الناس ولم يعرفوا اسم من هيأها، وربما شاع اسم إنسان بمبالغة لا تشبه حقيقة عمله. لذلك نحفظ الحق في نسبة الإنجاز، ولا نجعل نسبة الاسم غاية تنافس منفعة الناس.

في صحيح مسلم أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه كان في إبله، فجاءه ابنه يذكر تنازع الناس على الملك. فذكّره سعد بقول رسول الله ﷺ: «إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي». لا يدل هذا على أن كل ظهور مذموم، ولا على ترك الحقوق العامة؛ لكنه يردّ الوهم الذي يجعل الخفاء فشلًا في الحياة.[10]

10 مسلم، الصحيح، كتاب الزهد والرقائق، حديث ٢٩٦٥، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. النص.

قد يحتاج العمل إلى تعريف بصاحبه، أو إلى تقرير عن نتائجه، أو إلى شكر من قام به. هذه أمور تنظر في مقاصدها وآثارها. أما تحويل كلِ معروف إلى مادة لإثبات أهمية النفس، فيجعل صاحبه تابعًا لما يراه الآخرون. ويستطيع المرء أن يخفف هذا التعلق بأن يكون له عمل صالح لا يتوقف على ذكره، وأن يفرح بتحقق المنفعة ولو تولى غيره إعلانها.

الخير الصغير ليس حياة صغيرة

لا نحيط بما يكتبه الله لعباده. وربما حفظ إنسان حقًا في موقف لم يره إلا صاحبه، فكان له من أثر الطمأنينة ما لا تبلغه كلمات كثيرة. وربما صبر على رعاية مريض سنوات، ولم يجد في سجل إنجازاته عنوانًا يلفت النظر. هذا الجهد لا يصير معدوم القيمة لأنه لا يصلح لصورة دعائية.

لكن الاعتراف بفضل العمل الخفي لا يُستعمل عذرًا للكسل مع القدرة. من عرف باب خير يستطيع القيام به فليأخذ نصيبه منه. المقصود أن تبدأ همته من الحق الذي أمامه، وأن يترك احتقار القليل الصالح، وأن يحذر من القليل الضار. فالخطوة التي كتبها الله لا تحتاج إلى أن يصفق لها أحد، والكلمة التي آذت لا تزول مسؤوليتها لأن صاحبها سمّاها عابرة.

الفصل الرابع: لسان الصدق والاقتداء بالأنبياء

قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]. فسر الطبري هذا الدعاء بالذكر الجميل والثناء الحسن الباقي في القرون الآتية. تتعلق الدعوة بذكر صادق، لا بصورة ينسجها الإنسان لنفسه، وتأتي بين سؤال الحكم واللحوق بالصالحين، وسؤال نعيم الآخرة والسلامة يوم البعث.[11]

من هذا السياق نعرف أن محبة الذكر الحسن لا تنفصل عن محبة الصلاح الذي يستحقه. لا نبدأ بما سيقوله الناس، ثم نصنع ما يضمن قولهم؛ بل نصدق مع الله ونرجو أن يجعل لنا ذكرًا جميلًا يوافق الحق. وقد يكون من نفع ذلك أن يقتدي الناس بعمل صالح، أو يعرفوا طريقًا من الخير جرى على يد صاحبه.

بناء البيت وسؤال القبول

حكى القرآن عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهما يرفعان القواعد من البيت قولهما: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]. وفي حديث ابن عباس في صحيح البخاري

11 الطبري، جامع البيان، تفسير الشعراء ٨٤؛ المقصود هنا تفسيره للسان الصدق بالذكر والثناء الصالح. المصدر.

وصف تعاون الأب وابنه في البناء، كان إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، وهما يدعوان بسؤال القبول.[12]

هذا موضع جليل يجمع طاعة الأمر، والعمل باليد، والتعاون، والافتقار إلى الله. فلا يغني عظم المشروع عن دعاء القبول، ولا يمنع شرف صاحبه أن يرجو رحمة ربه. ونحن نتعلم من هذا أن الفراغ من العمل لا يضعنا في موضع تزكية أنفسنا. نفرح بتيسير الخير، ونشكر من أعاننا، ونسأل الله أن يتقبله ويصلح ما قصرنا فيه.

وتدخل الأسرة في هذه الصورة شريكة في الخير، لا مجرد جمهور يصفق لصاحبه. قد يجتمع الأب وابنه على تعلم، أو تتعاون الأم وابنتها في رعاية محتاج، أو يسهم الإخوة في حفظ حق أسرتهم. وليس المطلوب أن يحمَّل الطفل ما لا يطيق، بل أن يرى العمل في صورته الصحيحة، ويشارك بما يناسبه، ويتعلم أن المعروف لا يقتصر على الكلام عنه.

12 البخاري، الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، حديث ٣٣٦٤؛ استُعمل من حديث ابن عباس وصف تعاون إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في بناء البيت. النص.

الصبر الذي لا تقيسه الأعداد

أخبر الله أن نوحًا عليه السلام لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا [العنكبوت: ١٤]، وحكى دعوته لهم ليلًا ونهارًا، وإعلانه وإسراره [نوح: ٥-٩]. ومع طول الدعوة قال تعالى: ﴿وَمَآ آمَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]. لا يملك المبلّغ هداية القلوب، وإنما يُطلب منه أداء ما أُمر به على وجهه.

وهذا أصل يحتاج إليه من يعمل في التربية والإصلاح. قد يعلم إنسان ابنه أعوامًا، أو ينصح صاحبه، أو يصبر على تعليم من يتعلم ببطء، ثم لا يرى النتيجة التي تمنى. لا يصح أن نجعل قلة الاستجابة وحدها دليلًا على بطلان عمله. كما لا يصح أن نتخذها عذرًا لترك مراجعة الوسيلة؛ فبين أداء الواجب والبحث عن تحسينه طريق رحب.

ويظهر في قصة موسى عليه السلام عند ماء مدين معنى آخر قريب؛ وجد امرأتين تذودان، وسأل عن شأنهما، ثم سقى لهما، ثم تولى إلى الظل ودعا ربه [القصص: ٢٣-٢٤]. لم يملك خزائن ولا مؤسسة، لكنه باشر حاجة محددة استطاعها. وفي القصة عناية بالسؤال قبل التدخل، وبعمل يحل المشكلة، وبافتقار المحسن نفسه إلى فضل الله.

من إعجابنا بالقدوة إلى نصيبنا من العمل

لا ننتفع بسير الأنبياء إذا انتهت قراءتنا عند التعجب من علو منزلتهم. نتعلم التوحيد والصبر والرحمة والأمانة، ونقوم بما كلفنا به في حالنا. ولا ننسب لأنفسنا خصائص الوحي، ولا نبني أحكامًا عامة على تفصيل لم يثبت. لكل مقام قدره، ولنا من الاقتداء ما دل عليه الشرع.

وقد تلتقي هذه المعاني في قرار صغير: أن تؤدي معروفًا دون أن تجعل الشكر شرطًا لاستمراره، أو أن تعلّم من تستطيع تعليمه، أو أن تسأل الله قبول عمل أحسنته بدل الاكتفاء بإعجابك به. وإذا رزقك الله ذكرًا طيبًا فاحمده، واسأله أن يكون صدقًا، وأن يجعل باطنك خيرًا مما يظن الناس. وهكذا يتصل عنوان الأثر بقلب يريد رضى الله قبل رضى الناظرين.

الباب الثاني: صلاح القلب وصحة العمل

الفصل الخامس: الإخلاص وتجديد القصد

قد يقوم رجلان بالعمل نفسه، ويقفان في المكان نفسه، ثم يختلف ما يريدانه اختلافًا بعيدًا. أحدهما يرجو أن يصل الحق إلى صاحبه، والآخر يريد أن يعرف الناس أنه صاحب الفضل. وقد يجتمع في القلب دافع صحيح وآخر يحتاج إلى مجاهدة. لهذا كانت النية في أول ما ينبغي أن يتعلمه من يحب نفع الناس؛ قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى».[13]

الإخلاص أن تقصد بعبادتك وجه الله، وتطلب ثوابه، ولا تجعل عباده شركاء في الغاية التي تتقرب بها إليه. ولا يلزمك أن تتلفظ بنيتك في كل عمل، أو أن تفتش خواطرك تفتيشًا يمنعك من المبادرة. المطلوب أن تعرف لماذا تفعل، وأن تصرف قلبك إلى الله إذا وجدته يتطلع إلى ما يفسد قصده.

---

13 البخاري، الصحيح، كتاب بدء الوحي، حديث ١، من حديث عمر رضي الله عنه. النص.

حين تنجح الصورة ويفسد الباعث

في حديث أول من يقضى عليه يوم القيامة، ذكر رسول الله ﷺ رجلًا تعلم العلم وعلّمه وقرأ القرآن، ورجلًا وسع الله عليه المال فأنفق. ظهر لكل منهما في الدنيا عمل يمدح، لكن الحديث بيّن فساد القصد: أراد الأول أن يقال عالم وقارئ، وأراد الآخر أن يقال جواد. بلغ كل منهما ما أراده من ثناء الناس، ولم يكن ذلك نجاة له.[14]

لا نقرأ الحديث لنتهم العلماء والمنفقين، ولا لنحكم على سريرة شخص ظهر خيره. نقرؤه لنراقب أنفسنا. فقد تتزين النفس بالخدمة كما تتزين بالمال، وتطلب من المستفيد أن يشهد بمكانتها في كل مناسبة. وإذا لم يفعل ضاقت به، وربما تمنت أن تزول عنه المنفعة حتى يعرف قيمة من أعطاه. هنا موضع علاج يحتاج إلى صدق.

ومن الخطأ كذلك أن يقول المرء: أخشى الرياء، فلا أعلم ولا أتصدق ولا أشارك. ترك العمل الذي يحتاج إليه الناس لا يصلح النية وحده. يستطيع أن يبدأ بصورة أبعد عن دواعي التفاخر، وأن يقلل حديثه عن نفسه، وأن ينسب التوفيق إلى الله، وأن يستمر في التعلم والمراجعة. يتداوى قلبه وهو يؤدي الحق الذي عرفه.

---

14 مسلم، الصحيح، كتاب الإمارة، حديث ١٩٠٥، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في أول من يقضى عليه. أعيد سرد موضع الشاهد دون إضافة تفاصيل. النص.

الإعلان الذي يخدم العمل

ليس إظهار الصدقة محرمًا في نفسه، قال الله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]. وقد يحتاج تعليم الناس وتشجيعهم والوفاء بحق المساهمين إلى قدر من الإعلان. لكن حاجة العمل لا تبرر كشف ما لا حاجة إلى كشفه من أسرار المحتاجين، أو صناعة قصة مبالغ فيها عن صاحب المبادرة.

يمكن أن يعلن الفريق ما أنجزه دون تصوير وجوه من لا يرغبون في الظهور. ويمكن أن يبين حجم النفقات والتقدم من غير ادعاء نتائج لم تتحقق. وتستطيع المؤسسة أن تذكر القائمين بحقهم، وأن تحمي نصيب العامل المجهول من الاعتداء. الإعلان الأمين إجراء يخدم منفعة محددة، وتفسده المبالغة كما يفسده تحول المستفيد إلى أداة لمدح غيره.

القصد يتجدد مع تغير الحال

قد يبدأ الإنسان صادقًا ثم يتعلق بما جاءه من قبول أو سلطة. وربما يبدأ مترددًا ثم يعينه الله على صدق أعظم. لذلك لا يكتفي بنية قديمة يتذكرها عند افتتاح العمل. يجدد قصده إذا توسع النشاط، أو أثنى الناس عليه، أو اختلف مع شريكه، أو وجد بديلًا أصلح منه لإدارة ما بدأه.

ومن العلامات العملية التي يمكن أن يراجع بها نفسه: هل يفرح بأن يقوم الخير ولو تقدم غيره؟ هل يعترف بفضل من ساعده؟ هل يقبل التصحيح الذي يحفظ المنفعة وإن أضعف صورته؟ هذه أسئلة للمحاسبة، وليست اختبارًا يقطع بدرجة إخلاص أحد. فقد يتألم القلب من النقد ثم يجاهد صاحبه هذا الألم ويقبل الحق.

وحين ينتهي يومك، لا تجعل عملك حجة تستعلي بها على من خدمته. اسأل الله أن يتقبله، واستغفره مما خالطه، واشكره أن جعلك قادرًا على شيء من الخير. فمن أكثر ما يحفظ الإحسان أن يتذكر صاحبه أنه هو أيضًا محتاج، وأن القدرة على البذل نعمة تستحق الشكر.

الفصل السادس: المتابعة والعلم قبل المبادرة

يريد المحسن أن يكثر الخير، وقد يدفعه حماسه إلى تجاوز السؤال عن مشروعية الطريق. لكن النبي ﷺ قال: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد». يضبط هذا الحديث العبادة بأمر الشرع، فلا يملك أحد أن يجعل كل ما يستحسنه عبادة مخصوصة، أو يقرر له فضلًا غيبيًا من عنده.[15]

15 مسلم، الصحيح، كتاب الأقضية، حديث ١٧١٨، من حديث عائشة رضي الله عنها. النص.

وتظهر أهمية هذا الضابط حين تُخلط الأفكار التنظيمية بالأحكام التعبدية. تنظيم درس في موعد يناسب الناس تدبير قابل للتغيير. أما الزعم بأن عددًا اخترناه من الأيام أو التكرارات سبب شرعي لثواب مخصوص، فيحتاج إلى دليل. وكذلك اختيار وسيلة تقنية للتعليم شيء، وإحداث عبادة لم يدل عليها الوحي شيء آخر.

السنة الحسنة في سياقها

قدم على النبي ﷺ قوم من مضر ظهرت عليهم شدة الفقر، فحث الناس على الصدقة. وجاء رجل من الأنصار بصرة، ثم تتابع الناس بالعطاء. في هذا السياق قال رسول الله ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده». كان الرجل سابقًا إلى صدقة مشروعة دعا إليها النبي ﷺ، ففتح بفعله باب اقتداء.[16]

نتعلم من القصة أن المبادرة الصادقة قد تحرك القادرين، وأن العمل أبلغ من الاكتفاء بالحث عليه. ونتعلم كذلك أن وصف السنة بالحسنة لا يستقل عن مشروعية ما يُفعل. فلا نقتطع العبارة

16 مسلم، الصحيح، كتاب الزكاة، حديث ١٠١٧، من حديث جرير رضي الله عنه؛ اللفظ مرتبط بالمبادرة إلى الصدقة. النص.

لتصحيح كل اختراع في الدين، ولا نهمل ما في الحديث من فضل بدء الخير وإحياء العمل به.

أما عبارة «إلى يوم القيامة» فليست جزءًا من هذا اللفظ الذي ساقه مسلم. يشرح امتداد الأجر بامتداد العمل والاقتداء، لكن لا تضاف إلى الاقتباس النبوي ألفاظ لم ترد فيه. وهذا الضبط اليسير مثال على أثر الأمانة في التعليم؛ فالكلمة التي نزيدها اليوم قد ينقلها غيرنا على أنها من أصل الحديث.

ما يُسأل عنه قبل العمل

قد تكون مشروعية المقصد ظاهرة، وتبقى الوسيلة محتاجة إلى بحث. تعليم غير القادرين مقصد نافع، لكن جمع المال له يجب أن يكون أمينًا، والمحتوى صحيحًا، والمعلم مؤهلًا لما يقدمه، ووقت المتعلمين وخصوصيتهم محفوظين. والرغبة في التيسير على المرضى لا تخول غير المختص أن يصف لهم علاجًا لا يحسنه.

لهذا يسأل الإنسان أهل العلم عما أشكل من الحكم، وأهل الخبرة عما أشكل من الواقع والتطبيق. لا يغني جواب فني عن حكم شرعي يتعلق بحق أو محرم، ولا يغني حسن القصد عن معرفة فنية يتوقف عليها الأمان. وقد تشتمل المسألة الواحدة على الجانبين، فتحتاج إلى تعاون يعرّف كل طرف بحدود معرفته.

وإذا اختلفت الاجتهادات المعتبرة، نقل الخلاف بإنصاف، ولم يقدّم اختيارًا خاصًا على أنه إجماع. وليس القارئ مطالبًا بأن يصبح فقيهًا قبل كل إحسان، لكنه مسؤول عن القدر الذي يصحح عمله، وعن ألا يتكلم فيما يجهل. وسؤال صادق في بداية الطريق قد يمنع سلسلة طويلة من الأخطاء.

التوقف قد يكون إحسانًا

ربما ظهر في التجربة ضرر لم يكن معلومًا. فتصحيح الوسيلة أو إيقافها لا يعني خيانة المقصد. إنما يدل على أن المنفعة عند صاحبها أسبق من تعلقه بفكرته. فالعمل الذي لا يتعلم من خطئه قد يستمر بقوة العادة، وإن أصبحت حاجة الناس إليه أقل من الضرر الذي يسببه.

ومثل ذلك من نشر معلومة ظنها صحيحة، ثم بان له خطؤها. يتوقف عن ترويجها، ويصححها لمن وصلتهم بحسب قدرته، ولا يحتج بأن قصده كان الخير. القصد يحمله على التصحيح، لا على الإصرار. وبذلك تنشأ ثقافة يتعلم فيها الناس أن صدق الرجوع من صيانة الأثر.

الفصل السابع: الصدق والأمانة والإحسان

مر رسول الله ﷺ على صبرة طعام، فأدخل يده فيها فوجد بللًا. وسأل صاحب الطعام، فذكر أن المطر أصابه. فقال ﷺ: «أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس، من غش فليس مني». لم ينكر وجود المطر، وإنما أنكر إخفاء الحال التي يحتاج المشتري إلى معرفتها.[17]

تفتح هذه القصة بابًا واسعًا في معنى الأثر. فالمعلومة الصحيحة تحفظ اختيار الإنسان وماله، والمعلومة المحجوبة قد تنقله إلى قرار يضره. ولا ينحصر الغش في السوق؛ فقد يدخل تقرير العمل، وعرض نتائج برنامج، والترويج لدورة، ووصف خدمة، وكل موضع يعتمد فيه الناس على ما نبينه لهم.

صدق يمكن لصاحبه أن يعمل به

قال النبي ﷺ في البيع: «فإن صدقا وبيّنا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا مُحقت بركة بيعهما». يجمع الحديث الصدق والبيان؛ فقد يمتنع المرء عن الكذب الصريح ويترك ما يحتاج إليه الآخر

17 مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، حديث ١٠٢، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في صبرة الطعام. النص.

حتى يقع في الوهم. والأمانة تتطلب أن يبين القدر المؤثر، وأن يبتعد عن عبارة صحيحة جزئيًا صيغت لتوهم خلاف الحقيقة.[18]

من أمثلة ذلك أن يقال عن دورة إنها درّبت مئة شخص، بينما لم يكملها إلا عدد قليل. عدد المسجلين حقيقة، لكنه لا يقوم مقام عدد من تعلموا أو أتقنوا. وإذا وُضع الرقمان في موضعيهما أمكن معرفة الخلل وإصلاحه، وحُفظ المال والجهد. أما تزيين التقرير فيؤخر العلاج، ويجعل من يبني عليه قرارًا شريكًا في وهم لا يعرفه.

والاعتراف بما لا نعلم جزء من الصدق. لا يضع المعلم جوابًا لكل سؤال حتى يحافظ على صورته، ولا يعد المسؤول بموعد يعلم أنه غير قادر على الوفاء به، ولا يَعِد صاحب المبادرة بأن يغيّر حياة الناس جميعًا. قد تكون الإجابة الأمينة أقل إثارة، لكنها أصلح لبناء ثقة يستطيع العمل أن يعتمد عليها.

أداء الأمانة إلى أهلها

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]. والأمانة ليست مالًا مودعًا فقط. يدخل في معناها

18 البخاري، الصحيح، كتاب البيوع، حديث ٢٠٧٩، من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه. النص.

ما استؤمن عليه الإنسان من مسؤولية وحقوق ومعلومات، بحسب العقد والشرع والعرف الصحيح. وقد يحمل شخص ملفًا عن أسرة محتاجة، فيكون حفظه من النشر جزءًا من خدمتها.

ومن لوازم الأمانة أن لا يعطّل المسؤول العمل إذا انتقل عنه. يسلم ما يحتاج إليه من بعده، ويبين الالتزامات القائمة، ويفصل أموال العمل عن أمواله، ويترك سجلًا يستطيع غيره فهمه. هذه إجراءات حديثة في صورتها، لكنها تعين على أداء حق معروف. وقد يحسن إنسان افتتاح مشروع ثم يسيء إليه بكتمان ما يلزم لاستمراره.

ولا تحمل الأمانة صاحبها على ادعاء قدرة لا يملكها. من كُلّف بما يجاوز معرفته يبين حاجته إلى تدريب أو معونة، ومن لا يستطيع حفظ سر معين لا يقبل مهمة تشترطه حتى يتهيأ. الصراحة المبكرة أرفق من اكتشاف العجز بعد تعلق حقوق الناس به.

الإحسان في التفاصيل

يظهر الإحسان في أشياء لا تعدها تقارير الإنجاز كبيرة: جواب مفهوم، وموعد يحترم، وإجراء لا يرهق المسن، وتصحيح اسم، ورد مال أخطأ الحساب فيه. وحين تتكرر هذه التفاصيل يصير العمل مكانًا يأمن فيه الناس على حاجتهم. ولا يلزم أن ينتظر صاحبه ميزانية إضافية ليبدأ بما يدخل في قدرته.

والإحسان لا يعني وعدًا بالكمال. قد يخطئ الصادق، ويتأخر الأمين، لكن أثر خلقه يظهر في بيان الخطأ ومعالجته. أما الغش فيجعل النجاة للصورة ولو خسر الإنسان حقه. وبين الطريقين يتعلم من حولنا معنى المسؤولية، ولذلك تكون طريقة تصرفنا بعد الخطأ جزءًا من أثرنا بقدر طريقة تصرفنا قبله.

الفصل الثامن: الرياء والعجب والمن والأذى

قد يصل المال إلى المحتاج ويتبعه كلام يؤذيه. يذكّره المعطي كل مرة بما أعطاه، أو يطلب منه ولاءً لا علاقة له بحاجته، أو يجعل فقره خبرًا يتناقله الناس. لذلك قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤]. فصيانة المعروف جزء من أدائه، وقد يفسد صاحبه ما بدأه بإحسان.

حق المستفيد بعد وصول العطاء

لا يشتري المتصدق بصدقته حياة من أعطاه ولا قراراته. يستطيع أن يتحقق من وصول المال إلى مصرفه المشروع، وأن يشترط في مشروعه شروطًا صحيحة، لكن ليس له أن يجعل كل اختلاف شخصي إنكارًا للفضل. فمن احتاج إلى علاج يبقى له حق الكرامة، ومن أخذ عونًا على الدراسة لا يصبح ملزمًا بمدح من أعانه.

ويؤذي بعض الناس من حيث لا يقصدون حين يحوّلون الحاجة إلى مشهد علني. قد تُرسل صورة طفل أو وثيقة مريض على نطاق أوسع مما يلزم، ثم يصعب تدارك انتشارها. لذلك ينبغي أن يسأل صاحب العطاء: ما القدر الذي يحتاج إليه العمل فعلًا من هذه المعلومات؟ ومن له حق الاطلاع عليها؟ كلما أمكن تحقيق النفع مع حفظ الستر كان ذلك أقرب إلى الرفق.

حين يرى المحسن نفسه

العجب أن يستعظم الإنسان عمله ويغفل عن فضل الله وتقصيره، حتى يظن أن نجاحه دليل على استغنائه عن النصح. يبدأ العمل محتاجًا إلى أعوان، ثم ينسب كل خير إلى نفسه، ويحمّلهم كل نقص. وقد يتحول من خادم للناس إلى شخص يصعب أن يسمع منهم حاجة لا توافق خطته.

ولا يعالج ذلك بإنكار ما تحقق من خير. يجوز أن يعرف المرء ما أحسن، وأن يتعلم من أسباب نجاحه. إنما يضع الفضل في موضعه: التوفيق من الله، وللناس إسهامهم، وللنتيجة حدودها، وللعمل جوانب تحتاج إلى تحسين. الاعتراف بالواقع شيء، وتزكية النفس واستعلاؤها شيء آخر.

وجاء في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه». يوقظ هذا

الوعيد القلب من الاكتفاء بصورة العمل، ويدعوه إلى تجديد الإخلاص. ولا يخول قارئه أن يفتش سرائر الآخرين أو يقطع ببطلان أعمالهم؛ فموضع المحاسبة الذي يملكه هو نفسه.[19]

معالجة ترد الخير إلى صفائه

إذا وجدت في نفسك منًّا، فتوقف عن الكلام الذي يذكّر الناس بعطائك، ورد إليهم حريتهم وكرامتهم. وإذا آذيت أحدًا بتشهير أو عبارة، فاستدرك الأذى بحسب حاله، ولا تكتف بتبرع آخر لتتجنب الاعتذار أو التصحيح. وقد يكون رفع الصورة أو إصلاح الكلام أنفع له من زيادة المال.

وإذا وجدت أنك لا تحتمل نجاح غيرك في الباب الذي تحبه، فراجع غايتك. يمكن أن تعمل معه، أو تدله على ما يفيده، أو تحفظ لسانك عن الانتقاص. ولا يلزم أن يزول كل ضيق في لحظة؛ المهم أن لا يتحول الضيق إلى ظلم، وأن تمضي في إصلاح القلب والعمل معًا.

ومن الخير أن يبقى لك نصيب خفي، وأن تصحب من ينصحك دون تملق، وأن تقرأ نصوص الافتقار والقبول كما تقرأ نصوص

19 مسلم، الصحيح، كتاب الزهد والرقائق، حديث ٢٩٨٥، حديث قدسي من رواية أبي هريرة رضي الله عنه. النص.

الثواب. فالأثر الذي نرجوه يحتاج إلى قلب يحمله، وهذا القلب لا يستغني عن التوبة وإن كثرت أعماله. وأقرب المعروف إلى السلامة ما وصل إلى الناس محفوظ الكرامة، وصحبه رجاء صادق فيما عند الله.

الباب الثالث: تربية النفس على المبادرة والثبات

الفصل التاسع: العمر والعلم والمال والبدن

لا يبدأ حساب الحياة من آخرها فقط. فالسنوات تتكون من أيام، وما نظنه وقتًا واسعًا يتوزع بين قرارات صغيرة تتكرر. وقد قال النبي ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ». يكون لدى الإنسان ما يستطيع أن ينتفع به، ثم يمضي دون أن يستعمله فيما يعود عليه بالخير، فإذا تغيرت حاله عرف قدر ما فاته.[20]

وفي حديث أبي برزة رضي الله عنه، الذي قال الترمذي فيه: حسن صحيح، أن العبد يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيما فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه. تجمع هذه الأصول وجوه القدرة التي نباشر بها حياتنا؛ والسؤال عن المال يشمل مصدره ومصرفه معًا.[21]

---

20 البخاري، الصحيح، كتاب الرقاق، حديث ٦٤١٢، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. النص.

21 الترمذي، الجامع، حديث ٢٤١٧؛ قال: «حسن صحيح»، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم ١٢٦. وفي إسناده خلاف. لفظه وحكمه؛ نقل التصحيح.

السؤال الذي يصحح علاقة الإنسان بوقته

ليس المراد أن يحوّل المسلم كل دقيقة إلى إنتاج ظاهر، أو أن يمتنع عن الراحة والمباح. للبدن حق، وللأهل حق، وقد تكون الراحة مما يعين على أداء الواجب. إنما يراجع ما يستهلك عمره دون نفع أو يوقعه في محرم أو يضيّع حقًا. فالفرق كبير بين ترفيه مباح يرد النشاط، وعادة تطغى على الصلاة والعمل والبيت.

وقد يكرر الإنسان أنه لا يجد وقتًا، ثم يكون في يومه متسع لو ترك التشتت الذي لا يختاره بوعي. لا نحتاج إلى اتهامه، بل إلى وصف واقعه: أين يذهب الوقت؟ ما الذي لا يمكن نقله لأنه حق لغيره؟ وما الذي يمكن تقليله؟ هذه أسئلة تنظيمية تستفيد من أصل المحاسبة، ولا تجعل طريقة واحدة في كتابة الجداول سنة لازمة.

ومن الخطأ أن يقيس صاحب الفراغ غيره بنفسه. رعاية طفل، أو ملازمة مريض، أو طلب رزق لازم، مسؤوليات تستهلك وقتًا حقيقيًا. وربما كانت الخدمة المطلوبة من صاحبها أن يحسن هذه المسؤولية، لا أن يزيد عليها نشاطًا ينهكه ثم يلوم نفسه لعجزه عنه.

العلم الذي يطلب جوابه في السلوك

يعرف بعض الناس أحاديث في الصدق والرفق، لكن أثر معرفتهم لا يظهر عند الخصومة. وتكثر عند آخر عناوين الدورات، ثم لا يستعمل ما تعلمه في تصحيح خطأ واحد. العلم نعمة ومسؤولية، ومن شكره أن يعمل المرء بما تبين له، وأن لا يجعل تراكم المعلومات بديلًا من المجاهدة.

وهذا لا يذم التعلم الواسع، وإنما يربطه بغايته. إذا تعلمت حكمًا تحتاج إليه فاعمل به، وإذا تعلمت مهارة نافعة فجربها في نطاق كفاءتك، وإذا بان لك خطأ قديم فصححه. وقد يكون الأثر الأول لكتاب تقرؤه أن تصبح معاملتك لمن حولك أعدل، قبل أن تتحدث به في مجلس عام.

مال صحيح وبدن مصون

لا يصح أن يعالج المرء حرج الكسب المحرم بكثرة التبرع منه. أصل السؤال عن المال يبدأ من أين اكتسبه. ثم يأتي موضع إنفاقه: الحقوق الواجبة، والنفقة، والدين، وسائر المصارف المشروعة. والمال القليل المكتسب بحق لا يحتقر لأنه لا يفتح مشروعًا كبيرًا؛ فقد يكفي حاجة قريبة أو يعين على عمل مع آخرين.

والبدن وسيلة التكليف والعمل، وليس آلة يستنزفها صاحبها حتى يعجز. يطلب ما يحفظ قوته بما يقدر عليه، ويلتمس العلاج عند الحاجة، ويتجنب تكليف نفسه أو غيره ما يضر. ولا يصبح المرض حكمًا بانتهاء المنفعة؛ تتغير صورة العمل بتغير القدرة، ويبقى باب الدعاء والعلم والنصح والإعانة مفتوحًا بحسب الحال.

عندما يجتمع النظر في الوقت والعلم والمال والبدن، لا يعود التخطيط مجرد قائمة أمنيات. يصبح اختيارًا منضبطًا لما تستطيع أن تؤديه بصدق. وقد يكون قرارك الآن أن تقلل التزامات نافلة حتى تؤدي حقًا أهملته، أو أن تتعلم مهارة تحتاج إليها، أو أن تثبت عملًا يسيرًا كنت تؤجله. كلها صور لحياة تنتبه إلى ما استودعها الله.

الفصل العاشر: المبادرة ومقاومة التسويف

روى كعب بن مالك رضي الله عنه قصة تخلفه عن غزوة تبوك بصدق يوقظ النفس. كان قادرًا على الاستعداد، ويخرج ليهيئ أمره، ثم يرجع دون أن يقضي شيئًا، ويقول في نفسه إنه قادر على ذلك متى أراد. وتتابعت الأيام حتى خرج الناس وبقي. لم تكن

المشكلة جهلًا بالوجهة، بل تأخيرًا متكررًا حتى فات موضع العمل.[22]

نقرأ هذا الجزء من قصته دون أن نسوي بين تخلفه في تلك الواقعة وبين كل تأخر عادي في حياتنا. لكنه يكشف آلية نعرفها: يوهمنا إمكان الفعل لاحقًا أن الفرصة ستبقى كما هي. يتكرر التأجيل، ويكبر معه ما نحتاج إلى استدراكه، ثم نصير إلى قرار لم نكن نريد الوصول إليه.

حرص واستعانة وعمل

قال رسول الله ﷺ: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز». يبدأ التوجيه بمعرفة النفع، ويصل الإرادة بالاستعانة، وينهى عن الاستسلام للعجز. ولا يدعونا إلى حركة بلا بصيرة، أو إلى الاعتماد على النفس وحدها، أو إلى الحزن المستمر على ما فات.[23]

وقد يكون أول ما يزيل التسويف تصغير الخطوة الأولى حتى تصبح محددة. من أراد تعلم ما يصحح صلاته يبدأ بمسألة يحتاج إليها

---

22 البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، حديث ٤٤١٨، قصة كعب بن مالك رضي الله عنه في تبوك. استعمل من القصة موضع التسويف ثم الصدق والتوبة. النص.

23 مسلم، الصحيح، كتاب القدر، حديث ٢٦٦٤، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. النص.

ويقرأها في مرجع موثوق أو يسأل عنها. ومن أراد خدمة أسرته يحدد حاجة قائمة ويقضيها. ومن أراد إصلاح علم نشره يبحث عن موضع الخطأ ثم يصححه. أما عبارة سأصبح إنسانًا نافعًا فتبقى واسعة ما لم تتصل بفعل.

هذه الطريقة اقتراح لتيسير البدء، وليست وصفة تضمن النجاح. قد يمنع الإنسان مانع حقيقي، وقد يحتاج العمل إلى إذن أو مال أو شريك. لذلك لا يحسن أن نسمي كل توقف تسويفًا. نفرق بين تردد يمكن علاجه، وبين نقص يجب استكماله، وبين حق آخر له الأولوية.

البداية المشتركة

في قصة صدقة الأنصاري التي سبقت الإشارة إليها، لم ينتظر الرجل أن يقدم الآخرون، فكان فعله سببًا في تتابع العطاء. ومن نفع المبادرة أنها تجعل الخير ممكنًا في أعين من يراه. قد يقولون: نستطيع أن نسهم بما معنا، بدل انتظار من يملك الحل الكامل.[24]

ولا يلزم أن يبدأ كل واحد مشروعًا مستقلًا. قد تكون المبادرة أن تنضم إلى عمل يحتاج إليك، أو أن تنجز مهمة معلقة، أو أن تصل

24 مسلم، الصحيح، كتاب الزكاة، حديث ١٠١٧، من حديث جرير رضي الله عنه؛ اللفظ مرتبط بالمبادرة إلى الصدقة. النص.

بين شخصين يكمل أحدهما حاجة الآخر. وتتكاثر المؤسسات أحيانًا بينما تبقى الأعمال البسيطة دون قائم عليها. الحكمة أن نبحث عن المنفعة، لا عن لقب المؤسس.

حين لا تظهر النتيجة سريعًا

قد يبدأ المرء ثم يفتر لأن الأثر لم يظهر في أيام. والتعليم والتربية وإصلاح العادات تحتاج إلى زمن، وتتفاوت نتائجها. الصبر هنا لا يعني تكرار ما ثبت أنه يضر، وإنما إعطاء العمل المعقول فرصته مع المراجعة. ولا نحكم على نفع كل خطوة من شعور الحماس الذي يصحبها؛ فقد يكون أنفع يوم هو اليوم الذي أدينا فيه ما التزمنا به رغم فتورنا.

وإذا فاتتك فرصة، فاعترف بسببها دون أن تقيم في الندم. تعلّم مما كان، واستدرك ما تستطيع، وابحث عما بين يديك. في بقية حديث الحرص على النفع توجيه إلى التسليم لقدر الله عند المصيبة وترك الاعتراض الذي يفتح عمل الشيطان. فلا يهدم الندم قدرتك على الطاعة في الحاضر، ولا يجعلك ذكر القدر تتخلى عن السبب الذي تملكه.

الفصل الحادي عشر: المحاسبة قبل العمل وبعده

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]. يدعو هذا النظر إلى الوقوف عند العمل وقصده وحقه، بدل أن تمضي الحياة بقوة العادة. وليست المحاسبة أن يعاقب الإنسان نفسه بالكلام القاسي، بل أن يعرف خطأه ليصلحه، وخيره ليشكر الله عليه ويحفظه.

فصّل ابن القيم في إغاثة اللهفان محاسبة النفس قبل العمل وبعده. وقبل العمل ينظر العبد في قدرته، وفي رجحان الفعل، وفي باعثه، وما يحتاج إليه من إعانة. وبعده ينظر في تقصيره في الطاعة، وفي عمل كان تركه خيرًا، وفي مقصده في المباحات. ونأخذ هذا التقسيم من كلامه نفسه، دون اعتماد كل خبر يورده في الباب ما لم يثبت.[25]

قبل أن تعد الناس

أكثر ما يحتاج إلى المحاسبة وعد يتعلق به غيرك. قد تعد بتعليم أسبوعي لا تجد وقته، أو تتعهد بنفقة لا يثبت دخلها، أو تقبل

25 ابن القيم، إغاثة اللهفان، الباب الحادي عشر، فصل محاسبة النفس قبل العمل وبعده. إحالة إلى تقسيم المؤلف، لا تصحيح لجميع الأخبار في الباب. النص الإلكتروني.

مسؤولية لا تعرف شروطها. ويبدو الوعد في لحظته سخاءً، ثم يصبح بعد ذلك مصدر قلق وخيبة لمن اعتمد عليه.

اسأل عن قدرتك الحاضرة، وعن الحق الذي قد يزاحمه العمل، وعن البديل إذا انقطعت. ولا تجعل حسن ظن الناس بك يمنعك من بيان حدودك. قد يكون التزام محدود واضح أرفق بهم من وعد واسع لا تعرف كيف تفي به. ومن الأمانة أن تحدد ما تستطيع، وأن تترك مجالًا لما يطرأ من مرض أو حاجة لازمة.

واسأل عن باعثك دون إطالة تعطل الفعل. هل تريد الخير الذي تدعو إليه؟ هل تستطيع أن تقبل أن يكون لغيرك دور ظاهر فيه؟ وهل يحملك غضب شخصي على إظهار مشروع في صورة إصلاح وهو في حقيقته انتقام؟ قد يمنع هذا السؤال ظلمًا يتخفى وراء لغة ناصحة.

بعد أن تعمل

ينظر الإنسان إلى ما حدث، لا إلى ما تمنى حدوثه. من حضر الدرس؟ ماذا فهم؟ هل وقع حرج كان يمكن تفاديه؟ ومن لم يصل إليه الدعم، لماذا لم يصل؟ هذه أسئلة عن النفع الدنيوي يمكن مراجعتها، أما قبول العمل وثوابه فلا تقيسهما استبانة أو سجل حضور.

ثم يراجع ما له صلة بالتكليف: هل أدى الأمانة؟ هل استعمل ما ليس له؟ هل جار على أحد؟ وهل صحح ما علم أنه خطأ؟ فإذا وجد نقصًا بدأ بما يمكن تداركه. ولا يستر الضرر بشكر عام لمن شارك، ولا يدفن شكوى صحيحة لأنها تفسد صورة التقرير.

وقد تظهر في المراجعة نتيجة حسنة تستحق الشكر. لا يلزم أن يبحث الإنسان عن ذنب في كل نجاح حتى يكون متواضعًا. يعرف فضل الله، وينسب عمل الناس إليهم، ويثبت ما نفعهم، ثم ينظر فيما يحتاج إلى تحسين. هذا أقرب إلى الإنصاف من المبالغة في المدح أو المبالغة في ذم النفس.

محاسبة تصنع رجوعًا

يمكن أن ينتهي يومك بسؤالين هادئين: ما الحق الذي أحسنت أداءه؟ وما الحق الذي يحتاج إلى استدراك؟ ثم تتبعهما بخطوة ممكنة. ليس لهذه الأسئلة عدد تعبدي ولا وقت لازم، وإنما هي وسيلة لممارسة معنى شرعي. ومن نفعها أنها تربط التأمل بعمل، فلا تصبح المحاسبة انشغالًا بالكلام عن التغيير دون وقوعه.

ومن وجد في نفسه ضيقًا يطول ويعطله عن الحياة فليطلب المساعدة المناسبة، ولا يسمّ كل اجترار مؤلم محاسبة نافعة. المقصود إصلاح القصد والسلوك، مع رجاء رحمة الله. فباب التوبة أوسع من أن يحصر العبد نفسه في صورة خطئه إلى آخر العمر.

الفصل الثاني عشر: الاقتصاد والدوام

دخل النبي ﷺ المسجد فرأى حبلًا ممدودًا بين ساريتين، فقيل له إنه حبل لزينب تتعلق به إذا فترت. فأمر بحله، وأرشد إلى أن يصلي المرء في نشاطه، فإذا فتر قعد. في هذا الموقف تعليم عملي بأن التعب المقصود لذاته ليس معيار صلاح العبادة، وأن الاستمرار يحتاج إلى مراعاة القدرة.[26]

وقال ﷺ: «وأن أحب الأعمال أدومها إلى الله، وإن قل». ليس المقصود تفضيل كل قليل على كل كثير بإطلاق، بل فضل الدوام على العمل الصالح، والتحذير من اندفاع ينتهي إلى هجره. وقد جمع الحديث نفسه بين التسديد والمقاربة والافتقار إلى رحمة الله.[27]

التزام يمكن الوثوق به

ينتفع الناس بمن يحضر إليهم في الوقت الذي عرفوه، ولو كان عطاؤه محدودًا. المدرس الذي يثبت على درس يحتمله، والقريب الذي يقضي حاجة معلومة بانتظام، والمهني الذي يخصص قدرًا

---

26 البخاري، الصحيح، كتاب التهجد، حديث ١١٥٠، من حديث أنس رضي الله عنه، في الحبل الممدود لزينب. النص.

27 البخاري، الصحيح، كتاب الرقاق، حديث ٦٤٦٤، من حديث عائشة رضي الله عنها. النص.

مناسبًا لخدمة غير القادرين، يمنحون غيرهم إمكانية ترتيب حياتهم. أما الحماس الذي يعد بالكثير ثم يغيب، فيجعل المستفيد أسير انتظار لا يعلم نهايته.

وقد يحتاج المرء إلى تقليل العمل بعد أن يتبين له أنه فوق طاقته. يبين ذلك لمن يتعلق به، ويبحث عن بديل عند الإمكان، ويحتفظ بما يستطيع الاستمرار عليه. التخفيض الصادق خير من غياب بلا بيان. وإذا زادت القدرة بعد ذلك، أمكن توسيع العمل على علم بدل التوسع تحت ضغط المقارنة.

العمل حين تتغير الحال

لا تبقى حياة الإنسان على وضع واحد. يمرض، أو يتزوج، أو يولد له طفل، أو يعتني بوالد، أو يتغير دخله. ومن الفقه أن تتغير صورة الإحسان مع الحال، مع ثبات الفرائض بحسب أحكامها. قد ينتقل من الحضور إلى المساعدة من البيت، أو من الإنفاق إلى الدلالة، أو من التدريس المطول إلى إجابة سؤال يحسنه.

وفي الحديث الصحيح أن العبد إذا مرض أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيمًا صحيحًا. يفتح ذلك باب رجاء لمن كانت له

عادة صالحة ثم منعه العذر، ولا يجعل الانقطاع الاختياري بلا عذر مماثلًا له.[28]

ومن واجب من ينظمون العمل أن لا يجعلوا قيمة المتطوع مرتبطة بقدرته على الاستنزاف. تُحفظ مواعيده وحدوده، ويقبل عذره الصادق، ويهيأ من يكمل المهمة. فالرفق بالعاملين جزء من الإحسان الذي يدعون إليه، ولا يصح أن يكون نفع المستفيدين قائمًا على ظلم من يخدمونهم.

معنى الثبات

الثبات ليس تكرار الوسيلة نفسها بعد أن تبين عيبها. يثبت المسلم على الصدق والأمانة وطلب النفع، ويغير ما يحتاج إلى تغيير من الوسائل. وقد يكون إنهاء نشاط لم يعد مطلوبًا، ونقل الجهد إلى حاجة أشد، محافظة على المقصد نفسه.

اختَر من الخير ما تقدر على الوفاء به، وأدخل الراحة والحقوق في حسابك، ولا تجعل يوم الفتور دليلًا على فساد الطريق. ثم راجع تجربتك عند تغير الظروف. بهذا يصير الخير جزءًا مستقرًا من الحياة، ويتخفف من اعتماد دائم على مناسبة أو انفعال عابر.

---

28 البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، حديث ٢٩٩٦، من حديث أبي موسى رضي الله عنه. النص.

الفصل الثالث عشر: الصحبة والنصيحة والمراجعة

ضرب النبي ﷺ للجليس الصالح والجليس السوء مثلًا بصاحب المسك وكير الحداد، يجد الإنسان من مجالسته أثرًا، ولو لم يقصد أن يأخذ منه شيئًا بعينه. تنتقل إلينا من صحبة الناس معايير وألفاظ وعادات، وقد نعتاد ما كنا ننكره لأننا نسمعه كل يوم.[29]

ولهذا لا ينفصل بناء الأثر عن اختيار البيئة التي تعين عليه. من يحيط نفسه بمن يبررون كل تقصير، أو لا يحدثونه إلا عن صورته ونجاحه، يفقد فرصة رؤية ما يحتاج إلى تصحيح. والصاحب النافع يستطيع أن يفرح بخيرك، وأن يقول لك برفق إن هذا التصرف ظلم أو إن الوعد أكبر من قدرتك.

النصيحة حق متبادل

قال رسول الله ﷺ: «الدين النصيحة»، وذكر فيها النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم. والنصيحة إرادة الخير والقيام بما يلزمها من صدق وبيان؛ فلا تكون وسيلة للانتصار للنفس أو للتشهير بمن أخطأ.[30]

---

29 البخاري، الصحيح، كتاب البيوع، حديث ٢١٠١، من حديث أبي موسى رضي الله عنه في الجليس الصالح والسوء. النص.

30 مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، حديث ٥٥، من حديث تميم الداري رضي الله عنه. النص.

يحتاج الناصح إلى علم بما ينصح فيه، وإلى فهم للحال التي يتكلم عنها. وقد يخطئ إذا حكم على ما لا يعرفه، أو أعطى توجيهًا يضاعف ضررًا خفيًا. لذلك يبدأ بالسؤال والإنصات، ويميز ما رآه مما ظنه. وأحيانًا تكون أنفع نصيحة أن يدل الإنسان غيره على من هو أعلم منه.

ويحتاج من تُوجَّه إليه النصيحة إلى ألا يجعل مكانته حصنًا من المراجعة. قد يكون الناصح أصغر سنًا أو أقل شهرة، ومعه حق يحتاج إليه العمل. قبول الحق لا ينتقص الكرامة، وإنما يحفظها من الإصرار على ما يضر. ويمكن رفض عبارة جارحة مع الانتفاع بما فيها من معنى صحيح، دون أن نسوّغ الجرح.

الشورى التي تغير القرار

حين يستشير الإنسان غيره ينبغي أن يكون مستعدًا لسماع ما لم يتوقعه. أما جمع الآراء لإقرار قرار اتخذ سلفًا، ثم إهمال كل ما يخالفه، فلا يحقق نفع الشورى. ومن أدبها أن يُعرّف المستشار بالسؤال والقيود، وأن لا تُخفى عنه معلومات يحتاج إليها ثم يُلام على ضعف جوابه.

وفي العمل المشترك يكون للمستفيد رأي في وصف حاجته. قد يتصور القائم بالخدمة أن الناس يحتاجون إلى محاضرة، بينما حاجتهم إلى موعد يناسب عملهم أو شرح مكتوب يستطيعون

الرجوع إليه. لا يلزم أن يملك المستفيد الحل الفني، لكن خبرته بمعاناته جزء من المعرفة التي تصحح الاختيار.

كن أنت صحبة نافعة

ليس السؤال عمّن يساعدك وحده؛ انظر كذلك فيما يجده الناس عندك. هل يخرجون من مجلسك أكثر حرصًا على الصدق، أم أكثر جرأة على أعراض غيرهم؟ هل تحفظ سر من استشارك؟ وهل تستطيع أن تشكر نجاح صديق دون أن تقارنه بنفسك؟

قد يكون أثر صحبتك هادئًا ومتكررًا: تعيد الحديث إلى الإنصاف، وترد شائعة، وتذكر بحق غائب، وتدل على علم صحيح. لا تحتاج في كل مرة إلى موعظة طويلة. وحين تصبح هذه المعاني مألوفة في مجالسك، يجد فيها من حولك عونًا على الطريق، وتجد أنت فيهم من يردك إلى الحق إذا غفلت.

الباب الرابع: الحقوق التي يبدأ بها الأثر

الفصل الرابع عشر: حق النفس والقيام بالفرائض

زار سلمان رضي الله عنه أبا الدرداء، فرأى من حاله وحال أهله ما دعاه إلى مراجعته. جمع له بين طعام يأكله، ونوم يأخذ منه حاجته، وصلاة في آخر الليل. ثم قال له: «إن لربك عليك حقًا، ولنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا، فأعط كل ذي حق حقه». ولما ذكر أبو الدرداء ذلك للنبي ﷺ قال: «صدق سلمان».[31]

لا تُقرأ القصة على أن حقًا واحدًا يلغي غيره. جمع سلمان الحقوق، وأعادها إلى ترتيب يطيقه صاحبه. وفي هذا المعنى راحة لمن يظن أن صلاحه لا يظهر إلا في إنهاك نفسه؛ فالاقتصاد الذي يحفظ القدرة على الطاعة قد يكون أقرب إلى السنة من حماسة لا تعطي البدن والأهل حقهما.

---

31 البخاري، الصحيح، كتاب الصوم، حديث ١٩٦٨، من رواية أبي جحيفة رضي الله عنه، في قصة سلمان وأبي الدرداء. العبارة من كلام سلمان وأقرّها النبي ﷺ بقوله «صدق سلمان». النص.

الصلاة والعناية بالقلب

أول ما يحتاج إليه من يريد نفع الناس صلته بربه. يحافظ على صلاته، ويتعلم ما يصححها، ويجعل له من القرآن والذكر نصيبًا يقدر عليه. ولا يحتاج إلى أن يعتذر عن هذا الوقت؛ فهو من أصل ما خلق له. ومن دلائل خلل العمل أن يصير كل حق لازم فيه قابلًا للتأجيل، إلا موعد ظهور صاحبه أمام الجمهور.

والقلب يحتاج إلى تجديد، لأنه قد يعتاد ألفاظ الخدمة ويتعب من أهلها. قد يجد القائم على حوائج الناس قسوة أو ضيقًا بسبب تكرر المطالب. فيحتاج إلى عبادة ترده إلى معنى الرحمة، وإلى راحة تمنعه من صب تعبه على من يسأله. ليس هذا انقطاعًا عن الناس، بل صيانة للطريقة التي يعود بها إليهم.

بدن يعين على الوفاء

حق النفس يشمل أن لا يعرّضها الإنسان للضرر بغير حق، وأن يعطيها ما تحتاج إليه من طعام وراحة وعلاج بحسب الاستطاعة. ويختلف ذلك باختلاف العمر والصحة وطبيعة العمل. لا يصلح أن نفرض على الجميع قدرًا واحدًا من السهر أو الحركة، ثم نجعل من لا يطيقه أقل همة أو إيمانًا.

ويحسن بمنٍ يعمل مع آخرين أن يحترم حدودهم كما يحترم حدوده. لا يُطلب من العامل البقاء دون نهاية لأن المهمة خيرية، ولا تُترك مسؤولية مستمرة على شخص واحد لأن ضميره يمنعه من الاعتذار. التعاون الصحيح يوزع ما يمكن توزيعه، ويهيئ البديل، ويقبل الإفصاح عن التعب قبل وقوع الضرر.

وقد تكون من صيانة النفس إزالة سبب يضعفها كل يوم؛ خصومة تتكرر بلا معالجة، أو التزامات مالية فوق القدرة، أو عمل لا يعرف صاحبه متى ينتهي. لا تعالج كل مشكلة بجملة عامة عن الصبر. يتعلم الإنسان الصبر، ويسعى في السبب المباح الذي يخفف الضرر، ويسأل أهل الاختصاص عند الحاجة.

التوازن في موضعه

لا يعني إعطاء النفس حقها أن تصبح الرغبة الشخصية مقدمة على كل تكليف. قد يحتاج الواجب إلى مجاهدة ومشقة محتملة، وقد يتعين بذل لا يشتهيه الإنسان. إنما يميز بين مشقة يحتاج إليها أداء الحق، ومشقة صنعها سوء التقدير أو حب المبالغة. ولا يجعل الراحة غاية ينصرف لأجلها عن كل مسؤولية.

حين تصح هذه النظرة، يستطيع أن يقول نعم لما يقدر عليه، وأن يعتذر عما لا يطيقه، وأن يضع للواجب مكانه. وتصبح حياته أقدر

على حمل أثر مستمر؛ لأن العطاء يخرج من قدرة محفوظة، وصلة بالله تتجدد، ومعرفة بأن الحقوق تتكامل ولا تتقاتل.

الفصل الخامس عشر: الوالدان والزوجان والأولاد

سأل رجل رسول الله ﷺ عمّن هو أحق بحسن صحابته، فقدم الأم ثلاث مرات، ثم ذكر الأب. ليست حسن الصحبة كلمة تقدير تقال في مناسبة فقط؛ إنها رفق في الحديث، وصبر على ما يتكرر، وقضاء حاجة، واهتمام يلمسه الوالدان في أيامهما.[32]

قد يبحث الابن عن فرصة لخدمة غرباء، وفي بيته حاجة لا ينتبه إليها. ليس في خدمة البعيد خطأ، لكن غياب الانتباه للقريب يفسد ترتيب الخير. وربما كان الوالد لا يريد مالًا جديدًا، بل من يسمع حديثه أو يعينه على إجراء لا يحسنه. وربما احتاجت الأم إلى راحة من عمل تكرر عليها حتى لم تعد تشكو منه.

بر له صورة تناسب الحال

تختلف صور البر بحسب الحاجة والقدرة. قد يكون زيارة، أو نفقة لازمة، أو ترتيب رعاية، أو متابعة موعد، أو كلمة لطيفة في وقت

32 البخاري، الصحيح، كتاب الأدب، حديث ٥٩٧١، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. النص.

ضيق. ومن يسكن بعيدًا لا يصير عاجزًا عن كل بر، يستطيع أن يتواصل، ويشارك القريبين في المسؤولية، ويتحقق من وصول ما تحتاج إليه الأسرة.

وللبر حدود يحفظها الشرع. لا طاعة في معصية، وقد ذكر القرآن مع النهي عن طاعة الوالدين في الشرك قوله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥]. فيجتمع الثبات على الحق مع الأدب والرفق. وليس من المعروف أن نجعل خلاف الرأي المباح سببًا لقطيعة أو إهانة.

أما النزاعات المعقدة التي يجتمع فيها ضرر وحقوق متعارضة، فتحتاج إلى معرفة تفاصيلها وسؤال من يحسن الإصلاح. لا يُختزل الحكم فيها في عبارة تحمل طرفًا كل الأعباء وتغفل حال الآخر. المقصود إقامة الحق، وإبقاء المعروف ما أمكن، لا تسوية كل صورة بالصورة التي عرفناها في أسرنا.

خدمة الأهل من هدي النبوة

سُئلت عائشة رضي الله عنها عما كان النبي ﷺ يصنع في بيته، فقالت إنه كان يكون في مهنة أهله، أي خدمتهم، فإذا حضرت الصلاة خرج إليها. يزيل هذا الخبر التعارض المتوهم بين الشأن

العام والعناية بالبيت. من يحمل همّ الأمة يملك أن يكون رفيقًا بأهل بيته، وأن يشاركهم ما يحتاجون إليه.[33]

ويظهر أثر الزوجين في تفاصيل المعاشرة: احترام التعب، والعدل في الحديث، وحفظ الأسرار، والإنفاق بالمعروف، وتقدير ما يقوم به الآخر. وقد يفسد المرء معنى محاضرة كاملة عن الرحمة إذا عاد إلى بيته لا يسمع إلا نفسه. والبيت أقرب موضع يختبر فيه صدق الخلق؛ لأن الحياة المشتركة تكشف ما تخفيه اللقاءات القصيرة.

والعمل المنزلي والرعاية جهد حقيقي، سواء قام به رجل أو امرأة، وسواء ظهر في تقرير مالي أو لم يظهر. من يرعى طفلًا أو مريضًا يسهم في حفظ حياة واستقرار وتعليم. وينبغي أن يرى من حوله هذا الجهد، وأن يعينوه عليه، وأن لا يطالبوه بإثبات نفعه بنشاط آخر يضاف إلى ما يثقل عليه.

التربية أثر حاضر

كان عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه غلامًا في حجر النبي ﷺ، وكانت يده تطيش في الصحفة. فقال له ﷺ: «يا غلام، سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك». قال عمر بعد ذلك إن هذه بقيت

33 البخاري، الصحيح، كتاب الأذان، حديث ٦٧٦، من خبر عائشة رضي الله عنها في خدمة النبي ﷺ أهله. النص.

طريقته في الطعام. توجيه واضح في موقف يومي، حفظه صاحبه وعمل به.[34]

ليس التعليم الأسري كله درسًا مطولًا. قد يتعلم الطفل من طريقة رد والديه على خطأ، ومن وفائهما بوعد، ومن تصرفهما مع عامل. فإذا سمع الصدق ورآه متكررًا، وجد معنى يمكنه أن يقلده. وإذا طُلب منه احترام الناس وهو يرى إهانتهم، تعارض القول والفعل أمامه.

ويحتاج الطفل إلى تدرج ورحمة ومراعاة لقدراته. لا يحمل ذنب طموحات والديه التي لم تتحقق، ولا يجعل وسيلة لسمعتهما. يتعلم ما يلائمه، وتُنمى قوته، ويُعان على ضعفه. والعدل بين الأولاد لا يقتضي أن تكون حاجاتهم متطابقة، لكنه يمنع التفضيل الجائر والإهمال الذي لا يستند إلى حاجة صحيحة.

والتربية سبب يرجى نفعه، وليست ضمانًا يملك به الأبوان قلوب أولادهما. يعلّمان ويدعوان ويجتهدان، وتبقى لكل نفس مسؤوليتها. لا نسقط حق التربية بحجة أن الهداية من الله، ولا نحكم على كل والد مجتهد بالفشل إذا خالفه ولد. الجمع بين بذل السبب والافتقار إلى الله أعدل بالقلب وأقرب إلى الوحي.

---

34 البخاري، الصحيح، كتاب الأطعمة، حديث ٥٣٧٦، من حديث عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه. النص.

من لا ولد له ليس خارج الباب

ليست الأسرة صورة واحدة. قد يكون الإنسان أعزب، أو أرمل، أو مطلقًا، أو لم يرزق ولدًا، وله أبواب من العلم والرحمة والصلة والكسب والإعانة. لا نقيس قيمة حياته بما لا يملكه من ظروف. وقد يكون قريبًا أمينًا يلجأ إليه أبناء أسرته، أو معلمًا، أو معينًا لمن يقوم بالرعاية.

أما من له أولاد، فيبدأ بإحسان ما وُكل إليه، ولا يستصغر تكرار التربية. فأثرها في الحياة حاضر؛ يزداد به صدق، ويقل به أذى، ويُحفظ به حق. وما يمتد منها بعد الموت فضل آخر، يُرجى من الله، ويأتي تفصيله في موضعه من الحديث عن العمل الباقي.

الفصل السادس عشر: الأرحام والجيران وأهل الصحبة

الصلة لا تقوم على تبادل متساوٍ في كل مرة. قال رسول الله ﷺ: «ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها». يرفع هذا المعنى العلاقة عن حساب من اتصل أولًا ومن زار أكثر، ويجعل المعروف استجابة لحق، لا رد فعل على مقدار الاهتمام الذي تلقيناه.[35]

---

35 البخاري، الصحيح، كتاب الأدب، حديث ٥٩٩١، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. النص.

وللصلة صور متعددة؛ سلام وسؤال، وزيارة مناسبة، وعون عند الحاجة، وتعزية ومواساة، وترك ما يفسد العلاقة من نقل الكلام وسوء الظن. وقد لا تتيسر كل الصور في كل وقت، فيؤدى الممكن مع حفظ حدود الشرع. وليس اختلاف الناس في قدر الاجتماع مبررًا لجعل كل نقص قطيعة متعمدة.

حق القرب

قد لا يصرّح القريب بحاجته خشية الحرج، فيحتاج إلى انتباه رفيق. من المعروف أن يعرض الإنسان العون دون فضول يفتش تفاصيل لا تلزمه. وقد يكون أصلح العون أن يتاح في صورة تحفظ الاستقلال، كتعليم مهارة أو تسهيل إجراء أو إقراض جائز يقدر صاحبه على تحمله، مع بيان الحقوق.

ولا تعني الصلة إسقاط مال ثابت أو قبول أذى متكرر بلا معالجة. يمكن طلب الحق بالمعروف، والاستعانة بمصلح، وتنظيم التواصل بما يخفف الضرر. التفاصيل تختلف، لكن الأصل أن لا يتحول طلب الحماية إلى ظلم مقابل أو إلى تعميم اتهام على أسرة كاملة.

الجار الذي يرى أثرنا كل يوم

قال النبي ﷺ: «ما زال يوصيني جبريل بالجار حتى ظننت أنه سيورثه». يبدأ حق الجار بترك الأذى، ثم يتسع إلى المعروف

بحسب القدرة والحاجة. قد يعرف الجيران حقيقة أدبنا من الصوت والموقف والممر المشترك أكثر مما يعرفونه من الكلام الذي نكتبه عن الإحسان.[36]

ومن الصور القريبة حفظ مداخل البيوت من العوائق، ومراعاة أوقات الراحة، والإبلاغ عن خلل يهدد السلامة، ومعاونة من يحتاج إلى مساعدة عارضة. وإذا اختلف الجيران على أمر مشترك، فالمعروف أن يُطلب حل يحفظ الحقوق، وأن لا يصبح العناد أشد حضورًا من أصل المشكلة.

وتنشأ من هذه العناية ثقة متبادلة يمكن أن ينتفع بها الضعيف أو المنقطع. لكن حسن الجوار لا يبيح مراقبة الناس أو التدخل في خصوصياتهم. من تمام الرفق أن تظل المساعدة بابًا يستطيع المحتاج قبوله، وأن لا تتحول إلى سؤال دائم عن تفاصيل بيته.

الصداقة حين تمتحن

يسهل أن نكون لطفاء في وقت الراحة، ويظهر الخلق حين يمرض الصديق أو يضيق ماله أو يخطئ. ليست النصرة تبرير الخطأ،

36 البخاري، الصحيح، كتاب الأدب، حديث ٦٠١٤، من حديث عائشة رضي الله عنها، ورواه البخاري هنا من طريق الإمام مالك. النص.

وليست المواساة إغراقه في أسئلة لا يريدها. قد يحتاج إلى صحبة قصيرة، أو أداء مهمة، أو كلمة تحفظ رجاءه دون وعود زائفة.

ويصان أثر الصداقة بالوفاء والستر والإنصاف. لا تُنشر الرسائل القديمة عند أول خصومة، ولا يتحول ما عُرف في وقت الثقة إلى سلاح. وقد ينتهي اشتراك في عمل، وتبقى أمانة المعرفة وحق العشرة. هذه المواضع تبين مقدار ما تعنيه لنا الأخلاق حين لا تحمل مكسبًا عاجلًا.

من راعى القرب الذي جعله الله بينه وبين الناس، وجد أمامه ميدانًا واسعًا للمعروف. لا يحتاج إلى أن يعرف كل محتاج في العالم ليكون نافعًا؛ يبدأ بمن يصل إليه حقه، ثم يتعاون فيما وراء ذلك. وهكذا يتسع الأثر من علاقات مستقرة تعرف الرحمة وتثق بالعدل.

الفصل السابع عشر: تزاحم الحقوق وواجب الوقت

جاء رجل إلى النبي ﷺ يستأذنه في الجهاد، فسأله: «أحي والداك؟» فلما أجاب بنعم، قال: «ففيهما فجاهد». دلّ هذا الجواب على أن معرفة حال الشخص مؤثرة في توجيهه إلى العمل، وأن فضل باب عظيم لا يلغي حقًا متعينًا في حال السائل. وللجهاد

المتعين وغيره أحكامه، فلا تعمم الواقعة على جميع الأحوال دون تفصيل.[37]

وكثير من حيرتنا في العمل ناشئ من أن الفرص تأتي متزاحمة. يريد الإنسان أن يتعلم ويخدم وينفق ويصل ويستريح، وليس الزمن والمال بلا نهاية. لذلك يحتاج إلى معرفة ما يلزمه الآن، وما يستطيع تأجيله، وما يمكن أن يقوم به غيره، بدل أن يجعل كل طلب في المرتبة نفسها.

أفضل العمل يتصل بالحال

ناقش ابن القيم في مدارج السالكين اختلاف الناس في أفضل العبادة، ثم بيّن فضل العمل بمرضات الله وفق مقتضى الوقت والحال. ذكر القيام بحق الضيف، وتعليم المسترشد، وإغاثة المحتاج، وواجب الصلاة في وقتها. فلا يتعلق العبد بصورة واحدة حتى يترك ما هو أولى بها في موضعه.[38]

---

37 البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، حديث ٣٠٠٤، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. لا يعمم توجيه السائل على صور الجهاد المتعين. النص.

38 ابن القيم، مدارج السالكين، ج ١، فصل اختلاف أهل مقام إياك نعبد في أفضل العبادة؛ يميز عرضه لقول تفضيل النفع المتعدي بإطلاق عن اختياره مراعاة مقتضى الوقت والحال. المصدر.

يترتب على ذلك أن السؤال عن أفضل مشروع للجميع لا يملك جوابًا واحدًا في كل حال. قد يكون تعلم مهارة معينة أولى بطالب، وأداء نفقة لازمة أولى بمعيل، وإصلاح أمانة أولى بمسؤول. وقد توجد حاجة عاجلة لا يقدر عليها إلا صاحب خبرة بعينها، فيتأكد في حقه ما لا يتأكد في حق غيره.

ولا يبيح هذا للإنسان أن يسمي كل ما يحبه واجب وقته. يرجع إلى الحكم الشرعي، وإلى حقيقة الحاجة، وإلى قدرته، ويستشير إذا اشتبه عليه الأمر. ومن علامات سوء الاختيار أن يقدم العمل الذي يكثر فيه الثناء كل مرة، ويؤخر الحق الذي لا يراه إلا صاحبه.

حاجة عاجلة ونفع بعيد

قد يكون بين أيدينا إنفاق يخفف كربة عاجلة، ومشروع يعلم الناس مهارة تحتاج إلى زمن. كلاهما قد يكون صالحًا، وتُعرف الأولوية بحسب شدة الحاجة، ومن يقوم بها، والموارد المتاحة. لا يُترك الجائع انتظارًا لخطة طويلة، ولا تهمل أسباب حاجته الدائمة إذا أمكن علاجها. يتعاون العطاء القريب وبناء القدرة، ولا يلزم أن يتولاهما الشخص نفسه.

ومن نفع العمل الجماعي أن يسمح بهذا التنوع. ينصرف بعض القادرين إلى الاستجابة العاجلة، ويعتني آخرون بالتعليم والتطوير

والمتابعة. ويكون بينهما تواصل يحفظ موارد الناس من التكرار أو الانقطاع. أما إلزام الجميع بباب واحد فيضعف ما عداه من الحاجات.

الاعتذار الأمين

قد يكون الاعتذار عن تطوع جديد لازمًا لحفظ حق سابق. يعتذر المرء بوضوح، ويدل على بديل إن قدر، ولا يعد ليتخلص من حرج المجلس. وليس كل طلب لم يستجب له تقصيرًا في المعروف. الإحسان المحمود يراعي القدرة، ويعرف أن حقوق من اعتمدوا علينا لا تقل قيمة لأنهم لا يجددون طلبها كل يوم.

وإذا اتضح لك ما هو أولى، فاعملٍ به دون احتقار لأبواب الآخرين. فقد يكون ما لم تختره محتاجًا إلى من يناسبه، وفيه فضل لا تجحده. ومن استقام على هذا الفقه، قلّت في حياته المنافسة على الصور، وزاد تعاونها على الحاجات، وصار أثره أصدق اتصالًا بما كلفه الله.

الباب الخامس: نفع الناس والتعاون على البر

الفصل الثامن عشر: تفريج الكرب وقضاء الحوائج

حين تكون عونًا في ساعة الخوف

عاد النبي ﷺ من غار حراء وقد نزل عليه الوحي أول مرة، فوجد عند خديجة رضي الله عنها قلبًا مطمئنًا ولسانًا يثبّت. ذكّرته بما عرفته من سيرته: صلة الرحم، وحمل أثقال العاجزين، وإكرام الضيف، والإعانة على نوائب الحق. كانت تعرف أفعاله في الناس، فلم تحتج إلى صناعة صورة جميلة عنه؛ تحدثت عن خير عاشته ورأته.[39] وفي هذه الشهادة مكانة ظاهرة للمعروف في سيرة من اختاره الله لرسالته، كما أن في موقفها نفسه مثالًا لأثر الكلمة الصادقة حين تصدر عن معرفة ورحمة.

كم من إنسان يحتاج، قبل المال، إلى من يصغي إليه من غير ازدراء، أو يساعده على ترتيب أمر اشتد عليه! وقد تجتمع عليه حاجة مادية وخوف وجهل بالطريق؛ فيكون العون أن تفهم حاجته أولًا، ثم تبذل ما تستطيع. والإصغاء النافع ليس وعدًا

39 البخاري، الصحيح، كتاب بدء الوحي، حديث ٣، من خبر عائشة رضي الله عنها. النص.

بأنك ستحل كل شيء، بل حضور أمين لا يزيد اضطرابه، وسعي واضح يعرف ما يقدر عليه وما يحيله إلى أهله.

قال رسول الله ﷺ: «من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة»، وفي الحديث نفسه: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه».[40] يفتح هذا الوعد أفقًا أبعد من لحظة اللقاء؛ فأنت تعين محتاجًا اليوم، وترجو عون الله في دنياك وآخرتك. ومن وعى هذا المعنى لم يحصر العمل في مقابلة خدمة بخدمة، ولم يجعل ضعف قدرة المحتاج على مكافأته سببًا لتركه.

وجوه العون وأمانة الاختيار

الكربة تختلف باختلاف أصحابها. قد تكون دينًا حلّ موعده، أو جهلًا بإجراء، أو انقطاعًا عن مورد رزق، أو خوفًا على قريب. ولا يساوي المال وحده بين هذه الأحوال؛ فقد يحتاج أحدهم إلى مهلة، وآخر إلى ترجمة، وثالث إلى وساطة مشروعة، ورابع إلى مختص يعينه على قرار. وكلما عرفت أصل الحاجة قلّ احتمال أن تمنح شيئًا لا يعالجها، أو تحوّل صاحبها إلى تابع دائم لك.

---

40 مسلم، الصحيح، كتاب الذكر والدعاء، حديث ٢٦٩٩. النص.

جاء رجل إلى النبي ﷺ يطلب ما يركبه، ولم يكن عنده ما يحمله عليه؛ فعرض رجل أن يدلّه على من يعينه. فقال ﷺ: «من دلّ على خير فله مثل أجر فاعله».[41] هذه دلالة محددة أوصلت المحتاج إلى باب نافع. ومنها نفهم قيمة وصل الناس بالخبرة والخدمة: أن تعرف الجهة المناسبة، وتتحقق من ملاءمتها، وتشرح الطريق شرحًا مفهومًا. أما إغراق الحائر بأسماء لا تعرفها وروابط لم تفحصها فقد يزيد عبئه وإن بدا كثيرًا.

ومن حسن العون حفظ ما ائتمنك عليه صاحبه. لا يصبح ضيقه مادة تتداولها المجالس، ولا يكون تصويره شرطًا لإغاثته. وإذا احتجت إلى مشاركة بعض المعلومات لإتمام المساعدة، فبقدر الحاجة ومع من يلزم، وبمراعاة رضاه وحقوقه. فالمقصود أن يخرج من كربته أقدر على حياته، لا أن يخرج منها وقد فقد أمنه وخصوصيته.

أثر لا يحتاج إلى امتلاك كل الأسباب

قد لا تستطيع سداد الدين، لكنك تستطيع أن تشرح لصاحبه خياراته، أو تصل بينه وبين من يملك النظر في إمهاله. وقد لا تعرف جواب المسألة، لكنك تستطيع أن تعترف بذلك وتبحث

41 مسلم، الصحيح، كتاب الإمارة، حديث ١٨٩٣. النص.

عن أهلها. والصدق هنا جزء من الخدمة؛ لأن الوعد الكاذب يؤخر صاحب الحاجة عن باب آخر كان مفتوحًا له.

وإذا طال العمل فاجعل التواصل مفهومًا: ماذا أنجز؟ وما الذي بقي؟ ومن يتولى الخطوة المقبلة؟ فالصمت بعد الوعد قد يعيد القلق الذي أردت تخفيفه. وتلك عناية صغيرة في صورتها، كبيرة في أثرها على من ينتظر. ليس تفريج الكرب لحظة عاطفة فحسب؛ إنما قد يكون أمانة متابعة حتى تصل المعونة إلى موضعها، أو اعتذارًا صادقًا يتيح لصاحبها أن يلتمس طريقًا آخر.

الفصل التاسع عشر: الإصلاح والنصيحة والشفاعة

إصلاح يوقف امتداد الخصومة

اقتتل أهل قباء حتى تراموا بالحجارة، فلما أُخبر النبي ﷺ قال: «اذهبوا بنا نصلح بينهم».[42] في الخبر انتقال من سماع النزاع إلى السعي في إطفائه. فالخصومة إذا تُركت قد تنشئ خصومات: يحمل الأبناء أخبار الآباء، وتتوزع المجالس معسكرات، وتضيع حقوق لا علاقة لها بأصل الخلاف. وحين ينجح المصلح في رد الناس إلى العدل، فإنه يحفظ حاضرًا ويغلق أبواب شر كان يمكن أن يتسع.

---

42 البخاري، الصحيح، كتاب الصلح، حديث ٢٦٩٣. النص.

قال تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]. فالعدل وصف حاكم على الصلح، يمنع أن يصير اسم الإصلاح ستارًا لإسكات الأضعف. وقد يكون الاعتذار ورد الحق أول الطريق إلى السكينة، وقد يحتاج النزاع إلى جهة مختصة تمنع الاعتداء قبل أن تُطلب المصالحة. وما كان مبنيًا على خوف المظلوم وحده لا ينبغي أن يُحتفل به كأن المشكلة قد انتهت.

يحتاج المصلح إلى علم بحدود مهمته، وإلى قدرة على السماع من الأطراف، وإلى أمانة في نقل الكلام. لا يعد كل طرف بما ينقض وعده للآخر، ولا يفرض حلًا لأنه الأسرع أو الأيسر عليه. وهو يميز بين ما يتنازل عنه صاحبه طيب النفس، وما لا يملك التنازل عنه، وبين حق شخصي ومصلحة تتعلق بغيره. وإذا عجز عن ذلك، فدلالته على من يحسن الإصلاح عمل نافع في نفسه.

النصيحة التي تحفظ كرامة المنصوح

سبق أن الدين النصيحة؛ ومن رحمة النصيحة أن يتخير صاحبها ما يعين على فهمها. فالتشهير بخطأ خاص قد يدفع صاحبه إلى الدفاع عن نفسه بدل النظر في الحق، كما أن كتمان ضرر عام مستمر قد يترك الناس عرضة له. والميزان أن تعرف طبيعة الخطأ، ومن

يتضرر منه، والطريق المشروع لإيقافه، ثم تقصد الإصلاح لا التشفي.

وفي الحياة اليومية تتجلى النصيحة في أمور واضحة: أن تراجع مع زميلك معلومة قبل نشرها، وأن تبيّن لصديقك أثر وعد لا يقدر عليه، وأن تعترف لقريبك بأنك أخطأت فهمه. وقد تحتاج النصيحة إلى موعد آخر أو عبارة أرفق، لكنها لا تستقيم مع تزيين الباطل طلبًا للقبول. والرفق يعين الحق على الوصول، والصدق يمنع الرفق من أن يصير مجاملة مضرة.

الشفاعة باب من أبواب البذل

كان النبي ﷺ يحث أصحابه عند مجيء صاحب الحاجة فيقول: «اشفعوا تؤجروا».[43] فمن الناس من يملك مالًا، ومنهم من يملك معرفة بحال المحتاج، أو قبولًا عند من يستطيع خدمته. فإذا بذل معرفته وجاهه في إيصال حق أو معونة مشروعة فقد بذل شيئًا ذا قيمة، وإن لم يخرج من حسابه مال.

لكن الشفاعة تتبع موضوعها؛ قال تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾ [النساء: ٨٥]. فالتوصية بشخص تعلم عجزه عن مسؤولية

43 البخاري، الصحيح، كتاب الزكاة، حديث ١٤٣٢. النص.

تمس حقوق الناس ليست معروفًا مكتملًا، وتقديم قريب على مستحق بغير حق يضر من غاب عن مجلس الوساطة. الشفاعة الحسنة تنصر الاستحقاق، وتوضح ما خفي، ولا تزور أهلية ولا تسقط حقًا.

وقد يرفض صاحب القرار طلبك لأمر مشروع لم تعلمه، فلا تجعل مكانتك موضوع الخصومة. كان قصدك إعانة المحتاج، لا اختبار مقدار نفوذك. ومن حسن الأثر أن تستطيع السعي بشرف، وقبول الجواب بإنصاف، ثم البحث عن بديل مباح إن بقيت الحاجة قائمة.

الفصل العشرون: كفالة الضعفاء وصون كرامتهم

الرعاية التي تتسع للحياة

قال رسول الله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا»، وأشار بالسبابة والوسطى.[44] يوقظ هذا الوعد في النفس شوقًا إلى عمل يتصل بإنسان فقد سندًا من أسانيد حياته. واليتيم لا تختصره حاجته إلى الطعام؛ له أمن وتعليم وصحة وعلاقات وحقوق مالية.

44 البخاري، الصحيح، كتاب الأدب، حديث ٦٠٠٥. النص.

وقد يسهم شخص في باب من رعايته، ويقوم غيره بأبواب أخرى، فتتكامل المعونة بغير أن يدّعي كل واحد أنه استغنى عن الجميع.

والكفالة أمانة تتطلب دوامًا يناسب ما التزم به الكافل. فالوعد الذي يبني عليه ولي الطفل أمر الدراسة أو العلاج لا ينبغي أن يُقطع فجأة مع القدرة على البيان والترتيب. وليس المراد أن يلتزم الإنسان ما يعجز عنه، بل أن يقدر استطاعته منذ البداية، وأن يحدد ما يقدمه، ويشارك أهل الخبرة عند الحاجة. فالنية الرحيمة تحسن حين تصحبها عناية بما يترتب على العمل.

ومن صون اليتيم ألا تتحول قصته إلى هوية تحاصره. هو طفل له اسم وميول وقدرات، لا مجرد صورة حزن لاستجلاب العطاء. وينبغي أن تقربه الرعاية من حياة آمنة ومشاركة سوية، وأن تحمي ماله وخصوصيته، وأن تعطيه من الفهم والاستقلال ما يناسب سنه. وهذه تطبيقات لمعنى الأمانة، تختلف طرائقها بحسب الأحوال وتحتاج في تفاصيلها إلى المختصين.

السعي على الأرملة والمسكين

قال النبي ﷺ: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو القائم الليل الصائم النهار».[45] وفسر النووي الساعي بأنه

45 البخاري، الصحيح، كتاب النفقات، حديث ٥٣٥٣. النص.

الكاسب لهما، العامل لمؤونتهما.[46] وهذا يبين عناية تتحرك لتسد الحاجة. قد يدخل فيها الإنفاق المباشر، وقد يدخل في وجوه المعروف المتصلة بها تيسير الوصول إلى عمل مناسب أو خدمة لازمة أو حق تعطل. وليست كل حالة قابلة للحل نفسه؛ فمن الناس من تكفيه دفعة تعينه على البدء، ومنهم من يحتاج رعاية مستمرة لعجز أو مرض أو ظرف ممتد.

ومن الخطأ أن نعد الاحتياج عيبًا أخلاقيًا، أو أن نطالب كل محتاج بإثبات جدارته بالرحمة من خلال قصة مؤثرة. السؤال العادل يكون بقدر ما يلزم لمعرفة الاستحقاق وحسن توجيه المعونة. أما التنقيب عن تفاصيل لا أثر لها في القرار فيرهق الناس ويمس كرامتهم. ومع الأمانة في المال تأتي الأمانة في السؤال نفسه.

وحين تُتاح وسيلة للكسب، فمن الخير أن تناسب واقع صاحبها: مهاراته ووقته ومكانه ومسؤولياته. قد تفشل منحة أدوات لأن صاحبها لا يجد زبائن، أو لأن رعاية قريب مريض تمنعه من العمل بالمواعيد المفروضة. لهذا تكون مشاورته جزءًا من فهم

---

46 النووي، شرح صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم، شرح حديث ٢٩٨٢. النص.

حاجته. هو أدرى بجوانب من حياته، وصاحب الخبرة أدرى بجوانب من الوسيلة، ومن جمع المعرفتين اقترب من نفع أبقى.

قيمة العطاء القليل

دخلت امرأة ومعها ابنتان تسأل عائشة رضي الله عنها، فلم تجد عندها إلا تمرة فأعطتها إياها. فقسمتها الأم بين ابنتيها ولم تأكل منها، ثم أخبرت عائشة النبي ﷺ بما جرى، فجاء البيان النبوي في فضلِ القيام على البنات.[47] كان المشهد قليلًا في مقدار المال، واسعًا في دلالة الرحمة: عائشة تبذل الموجود، والأم تقدم ابنتيها.

وليس في القصة دعوة إلى تمجيد الحرمان أو ترك معالجة الفقر، وإنما فيها ألا يُحقر معروف لصغره. فقد تكون الوجبة الوحيدة المتاحة الآن جسرًا إلى تدبير أطول، وقد يكون استقبال الإنسان بلطف بداية استعادته الثقة بمن حوله. وتتكامل الرعاية العاجلة مع العمل على أسباب الحاجة؛ نطعم الجائع حين يجوع، ونبحث معه بعد ذلك عما يقيه تكرر الجوع بقدر الاستطاعة.

47 البخاري، الصحيح، كتاب الزكاة، حديث ١٤١٨. النص.

الفصل الحادي والعشرون: المعروف اليومي وكف الأذى

يوم يبدأ بالشكر

قال النبي ﷺ: «يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة»، ثم ذكر التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبيّن أن ركعتي الضحى تجزئان عن ذلك.[48] فالإنسان يدخل يومه وقد سبقته نعم الله، ويستقبلها بالعبادة والمعروف. وليست الصدقة في هذا الحديث محصورة في المال، كما أن الذكر والصلاة يظلان عبادة مقصودة، لا مجرد وسيلتين لتحسين علاقات الناس.

ومع هذا الاتساع تزول حجة من يتوهم أن أبواب الخير مغلقة لأنه لا يملك فائضًا كبيرًا. يملك لسانًا يذكر الله ويقول خيرًا، ووقتًا يسع معروفًا، وقدرة على الامتناع عن أذى. ويتفاوت الناس في هذه القدرات؛ فمن ضاق عليه باب ناظر غيره، ومن أعجزه المرض عن صورة من العمل لم يُنف قدره عند الله لمجرد عجزه عنها.

أما «السلامى» فيفسر هنا بالمفاصل، ولا حاجة إلى تحويل الحديث إلى مسابقة في المعلومات التشريحية حتى ندرك هدايته. المقصود

48 مسلم، الصحيح، كتاب صلاة المسافرين، حديث ٧٢٠. النص.

الحاضر في حياة القارئ أن يتذكر نعمة جسده، وأن يسأل نفسه عن شكرها. والتمرين التربوي المستفاد من ذلك أن يخرج من الاعتياد الغافل: ما أيسر الحركة التي اعتدتها، وما أوسع الخير الذي أستطيع فعله بها اليوم!

حفظ الطريق وحفظ حق العابر

يدل هدي الإسلام في إماطة الأذى على أن مساحة المعروف تشمل المرافق المشتركة التي لا يملكها شخص بعينه. وفي الحديث الصحيح: «ويميط الأذى عن الطريق صدقة».[49] فلا ينتظر المسلم أن يعرف أسماء الذين سينتفعون، ولا أن يشكروه واحدًا واحدًا. يكفي أن يكون الفعل نافعًا مأمونًا في موضعه، وأن يحتسبه عند الله.

وتتسع التطبيقات المعاصرة لهذا المعنى: رفع عائق صغير يمكن رفعه بأمان، أو الإبلاغ عن خطر إلى الجهة القادرة على إصلاحه، أو ترك الممر المخصص للحركة خاليًا، أو المحافظة على نظافة مكان يشترك الناس في استعماله. وهذه أمثلة مستنبطة من أصل كف الأذى، لا ألفاظ واردة في الحديث. وقد يكون البلاغ الصحيح أنفع من محاولة فردية تعرّض صاحبها أو العابرين للخطر.

---

49 البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، حديث ٢٩٨٩. النص.

ويبدأ الإصلاح أحيانًا بإمساك اليد: ألا تضع ما يؤذي، وألا توقف مركبتك حيث تمنع حركة محتاج، وألا تلقي مخلفاتك حيث يقضي غيرك وقتًا في إزالتها. فالعمل الاجتماعي يختل إذا تبرع الإنسان في ساعة ثم صنع في سائر يومه أعباء يتحملها الناس. وحفظ حقوقهم في السلوك المعتاد أرض تنبت فيها المبادرات النافعة.

ثقافة المعروف بين الناس

حين يرى الطفل الكبير يحفظ الدور، ويعتذر إذا ضايق أحدًا، ويشكر من خدمه، فإنه يتعلم أن الإحسان ليس شعارًا موسميًا. وحين يجد الموظف من زميله تعاونًا لا يستغله، تنشأ ثقة تعين على إتمام العمل. هذه الأفعال لا تحتاج إلى مسرح ظاهر، لكنها تغير معنى المكان لمن يعيش فيه.

ومن المعروف أن نجعل التعاون ميسورًا: نشرح التعليمات بوضوح، ونخبر من يتأخر عن الموعد، ونعيد الأداة إلى موضعها، ونسلم المهمة إلى من يليها بمعلومات كافية. قد تبدو تفاصيل إدارية، لكنها تتعلق بأوقات الناس ومصالحهم. وكلما احتسب المسلم أداءها وأحسنها دخلت في دائرة الخير بحسب حقيقتها ونيته.

فلا تنتظر يومًا استثنائيًا لتكون صاحب أثر. أمامك في يومك العادي فرص تتكرر، ومن بركتها أنها تربي النفس على الانتباه

والرحمة، ثم تجعل الأعمال الأكبر امتدادًا لطبع صالح، لا قفزة عابرة تنطفئ بانتهاء الحماسة.

الفصل الثاني والعشرون: الإحسان والتعاون في المجال العام

رحمة تتسع مع بقاء الحدود

قدمت أم أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما على ابنتها وهي مشركة، فسألت أسماء النبي ﷺ عن صلتها، فقال: «نعم صلي أمك».[50] يجمع هذا التوجيه بين ثبات المسلم على دينه وإحسانه المشروع إلى قريبه المخالف. وقال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

فخدمة المجتمع لا تنحصر فيمن يماثلك في كل وصف. والعدل في العمل، والوفاء بالعهد، والبر المباح، وحماية المرافق من الإفساد، وجوه يتعدى نفعها إلى بشر مختلفين. وينبغي أن يظهر أثر الإسلام في صدق المسلم وأمانته ورحمته، مع التزامه حدود الشريعة في نوع

50 البخاري، الصحيح، كتاب الهبة، حديث ٢٦٢٠. النص.

التعاون ووسيلته. فالانفتاح على المعروف لا يحتاج إلى محو الفروق بين الحق والباطل.

وفي خبر الرجل الذي اشتد به العطش ثم سقى كلبًا وجده يلهث، أخبر النبي ﷺ أن الله شكر له فغفر له، وقال جوابًا لمن سأل عن الأجر في البهائم: «في كل كبد رطبة أجر».[51] يتسع به الحس الأخلاقي إلى مخلوق لا يملك أن يطالب بحق أو يرد صنيعًا. ومن تأمله رقّ قلبه للألم، وأدرك أن الرحمة لا تقف عند ما يرجو منه الإنسان منفعة عاجلة لنفسه.

التعاون يصنع ما تعجز عنه اليد الواحدة

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]. ينظم هذا الأصل نية التعاون ومجاله معًا. قد يجتمع أصحاب مهن مختلفة على تيسير تعليم أو خدمة مرضى أو إصلاح مرفق، فيقدم كل واحد ما يحسنه، وتكتمل منفعة لا يقدر عليها منفردًا. ومع نمو العمل تزداد الحاجة إلى وضوح المسؤوليات وحفظ المال وتوثيق الالتزامات.

وليس إنشاء كيان جديد شرطًا للمشاركة. قد يكون الالتحاق بعمل قائم موثوق أجدى من تكرار خدمته، وقد تكفي مبادرة

51 البخاري، الصحيح، كتاب المساقاة، حديث ٢٣٦٣. النص.

محدودة بين أشخاص يعرفون ما التزموا به. والاختيار يتبع الحاجة والقدرة والأنظمة المشروعة التي تحفظ مصالح الناس. فالاسم الكبير لا يعوض ضعف الخدمة، كما أن العمل الصغير لا يكتسب الفضل لمجرد صغره؛ العبرة بصلاحه ونفعه وأداء حقوقه.

ومن أدب التعاون نسبة العمل إلى أهله. لا يستأثر المتحدث باسم الفريق بخبرة من لا يظهرون، ولا يختزل المنفق فضل المعلمين والعاملين. وكل دور يحتاج إلى الآخر: من يستقبل المحتاج، ومن يصحح معلومة، ومن يصلح خللًا، ومن يتابع حسابًا. وحين يشعر الناس بأن حقوقهم محفوظة، يسهل أن تستمر الخدمة بعد تبدل الأشخاص.

المرافق أمانة مشتركة

الماء والطريق والمكان العام ووسائل المعرفة موارد تتصل بها مصالح كثيرة. ومن الإحسان حسن استعمالها، وتجنب إهدارها، والمشاركة في إصلاحها بما يقدر عليه الإنسان. ويحتاج العمل البيئي أو الخدمي إلى معرفة حقيقية بالمشكلة؛ فقد لا يصلح كل غرس لكل مكان، ولا كل توزيع لحاجة كل أسرة. والسؤال عن الصواب جزء من البذل، لأنه يحفظ الموارد من الضياع.

وعندما يجتمع حفظ الحق الفردي مع العناية بالمصلحة المشتركة تنشأ صورة متماسكة للأثر: بيت تؤدى حقوقه، وجار يأمن،

وطريق يُصان، وعمل يُتقن، ومحتاج يجد من يعينه. تتسع الدوائر ويتفاوت أصحابها في القدرة، لكن الأصل يجمعها: عبادة لله تصدق في القلب، ويشهد لها السلوك في حياة الناس.

الباب السادس: العلم والعمل والكفايات التي تحتاجها الأمة

الفصل الثالث والعشرون: التعلم النافع والعمل بالعلم

العلم الذي يبدأ بإصلاح صاحبه

قد يفتح العلم للإنسان أبوابًا من النفع لا يفتحها المال، لكنه يبدأ بباب لا ينوب عنه أحد: أن يعرف ما يحتاج إليه في إيمانه وعبادته ومعاملته، ثم يعمل به. فليس من حسن الأثر أن يتقن المرء الحديث إلى الناس عن الفضائل، وهو يجهل واجبًا حاضرًا في حياته أو يصر على تضييع حق علم وجوبه. وما يتعلمه المسلم من دينه ينبغي أن يظهر في سجوده وصدقه وعدله قبل أن يظهر في عنوان يحمله.

فرّق الإمام الشافعي في «الرسالة»، في باب العلم، بين علم عام لا يسع البالغ العاقل جهله، كأصول الفرائض والمحرمات الظاهرة، وعلم تختص به طائفة وتكفي فيه عن غيرها.[52] يحفظ هذا التفريق للقارئ اتجاهه؛ فليس كل ما يثير فضوله أسبق مما يحتاج إليه، وليست المعرفة اللازمة للتاجر مطابقة في كل تفاصيلها لما يلزم

52 الشافعي، الرسالة، باب العلم؛ التفريق بين علم العامة وما تقوم به الكفاية. النص.

غيره. وإذا دخل الإنسان بابًا من العمل، لزمه أن يعرف من أحكامه ما يصح به فعله ويتجنب به الحرام.

والعلم النافع لا يقاس بكثرة المحفوظ وحدها. قد تحفظ حكم الأمانة ثم تمتحن في معلومة اؤتمنت عليها، وتحفظ فضل العدل ثم تمتحن حين يختلف قريبك مع غريب. في هذه المواطن يتبين أثر التعلم. وليس معنى ذلك أن يتوقف الطالب عن التحصيل حتى يبلغ الكمال؛ إنما يجمع بين زيادة المعرفة ومجاهدة النفس على العمل بما عرف.

النية التي ترافق الطلب

نقل السفاريني عن مهنا، صاحب الإمام أحمد، أن أحمد جعل لطلب العلم فضلًا مع صحة النية، وفسرها بالتواضع فيه ونفي الجهل.[53] وهذا المعنى يعيد الطالب إلى غايته: يتعلم ليرتفع عنه الجهل، ويحسن عبادة ربه، ويبلغ الحق إلى الناس بأمانة. فإذا شعر أن العلم يزيده احتقارًا لمن دونه، أو عجزًا عن الاعتراف بالخطأ، فذلك موضع محاسبة، لا علامة نجاح يطمئن إليها.

53 السفاريني، غذاء الألباب، مطلب إخلاص النية في طلب العلم، نقلًا عن مهنا عن الإمام أحمد. الإحالة إلى موضع النقل، وليست دعوى فحص مستقل لإسناده. النص.

وللتواضع صورة عملية: أن تسأل عما لا تفهم، وأن تميز بين ما قرأت وما أحكمت، وأن تقول «لا أعلم» حيث لا تعلم. وقد تكون هذه الكلمة أنفع لمن سألك من جواب طويل غير موثوق. ومن حفظ حدود معرفته بقي له مجال للنمو، وحفظ للناس حقهم في جواب صادر عمن يحسنه.

ويظهر الإخلاص كذلك في طريقة استعمال الخلاف العلمي. يطلب الطالب الحق، ويفهم موضع النزاع وأدلته، ويرجع إلى أهله، ولا يجعل المسألة وسيلة للغلبة أو جمع المتابعين. وليس كل اختلاف تناقضًا يهدم العلم، ولا كل قول منسوب إلى عالم صالحًا لأن يعمل به بلا نظر في ثبوته وسياقه. ومصاحبة العلماء المعتبرين وكتبهم تضبط الحماسة وتربي ملكة التمييز.

معرفة يحتاج إليها الناس

ذكر النووي في مقدمة «المجموع» أن من فروض الكفاية تحصيل ما لا بد منه لإقامة الدين من العلوم الشرعية، وذكر مما يقوم به أمر الدنيا الطب والحساب. وحكى خلافًا في الصنائع اللازمة لمصالح الناس، ثم رجح كونها فرض كفاية.[54] فالأمة تحتاج إلى

---

54 النووي، المجموع شرح المهذب، المقدمة، باب أقسام العلم الشرعي، القسم الثاني: فرض الكفاية. حكى الخلاف في الصنائع ورجح فرضيتها الكفائية؛ فلا ينسب فيها إجماع من هذا الموضع. النص.

من يحفظ علم الوحي، وإلى من يقوم بما تتوقف عليه مصالح معاشها. ولكل علم مرتبته وحكمه بحسب موضوعه والحاجة إليه.

ومن هنا لا يصح أن يُحصر النفع العلمي في وظيفة واحدة، ولا أن يُسوّى بين العلوم من كل وجه. فمعلم القرآن يقوم بعمل له فضله الخاص، والطبيب الأمين يقوم بخدمة يحتاجها الناس، والمهندس يحفظ مصالح من يستعملون ما يصمم. ويتصل صلاح الجميع بالعلم الذي يصح به عملهم وبالنية والأمانة، مع بقاء الفروق بين فضائل العلوم وأحكامها.

وإذا كان المرء في أول الطريق، فليجمع بين سؤالين: ما الواجب الذي يلزمني تعلمه الآن؟ وما القدرة التي أستطيع بناءها لسد حاجة معتبرة؟ ثم يسير بما يناسب مرحلته، من غير أن يحمل نفسه مسؤولية كل نقص في الأمة. إن بناء عالم أو معلم أو صاحب مهنة متقنة يحتاج زمنًا، وقد يكون صبر الطالب على أساس صحيح جزءًا من أثره قبل أن يراه الناس في صورة خدمة مكتملة.

الفصل الرابع والعشرون: التعليم والدعوة وبناء القدرة

مجلس بقي صاحبه من أجل حديث

روى أبو عبد الرحمن السلمي عن عثمان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه». ثم جاء في صحيح

البخاري أنه أقرأ من إمرة عثمان حتى زمن الحجاج، وأن هذا الحديث هو الذي أقعده مقعده ذاك.[55] هنا نرى علمًا سمعه رجل من السلف فتحول إلى اتجاه ممتد في حياته. لم يكن ثباته تكرارًا خاليًا من المعنى؛ كان يحمل وعدًا نبويًا يبعثه على التعليم.

ولا نحتاج إلى افتراض أعداد من قرؤوا عليه، أو إلى اختراع مشاهد لم يروها الخبر، حتى ندرك قيمة فعله. يكفي أن نتأمل الصبر على مجلس يتكرر، وعلى متعلمين يختلفون، وعلى خطأ يحتاج إلى تصحيح مرة بعد مرة. فالأثر العلمي يمر غالبًا بهذه الأعمال الصغيرة المتتابعة، قبل أن يراه المتأخرون تراثًا واسعًا.

ويبدأ المعلم النافع بما يحسنه. قد يعلّم قارئًا الفاتحة إذا كان أهلًا لتعليمها، أو يعين طالبًا على فهم مسألة تحقق منها، أو يشرح في مهنته إجراء يعرفه ويملك الإذن بتعليمه. ولا تصبح حدود التخصص قيدًا على الخير؛ إنها تحفظ صحته. ومن أراد التوسع اتخذ إليه طريق التعلم والتأهل، ولم يجعل رغبة التعليم شهادة تمنحه الإحاطة.

---

55 البخاري، الصحيح، كتاب فضائل القرآن، حديث ٥٠٢٧، وفيه خبر إقراء أبي عبد الرحمن السلمي. النص.

تعليم يحفظ النفس ويفتح السؤال

تكلم معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه في الصلاة وهو لا يعلم حكم الكلام فيها. فلما انتهت الصلاة علّمه النبي ﷺ ما يصلح لها، من غير شتم ولا ضرب، فبقي معاوية يذكر حسن تعليمه.[56] في هذا المشهد تصحيح واضح للخطأ، ورحمة واضحة بالمخطئ. لم يمنع الرفق بيان الحكم، ولم يحتج بيان الحكم إلى إذلال من يجهله.

ومن التعليم الموفق أن يفهم المعلم سبب الخطأ. فقد يكون جهلًا بالمقدمة، أو التباسًا في العبارة، أو خوفًا من السؤال، أو عدم ملاءمة الطريقة لحال المتعلم. وإذا عرفت السبب أمكن أن تغير الشرح أو تضيف مثالًا أو تعطي وقتًا للممارسة. أما إعادة الكلام نفسه بصوت أعلى فلا تكفي إذا كانت المشكلة في طريق وصول المعنى.

وسألت النساء النبيِ ﷺ أن يجعل لهن يومًا لما غلبهن الرجال على وقته، فوعدهن يوما لقيهن فيه ووعظهن وأمرهن.[57] يبين ذلك العناية بإتاحة العلم لمن لم تتهيأ لهن فرصته على الصورة القائمة. وفي عصرنا يمكن أن يستفاد منه أصل النظر في العوائق التي تمنع فئة

---

56 مسلم، الصحيح، كتاب المساجد، حديث ٥٣٧، من خبر معاوية بن الحكم السلمي. النص.

57 البخاري، الصحيح، كتاب العلم، حديث ١٠١. النص.

من التعلم، ثم تهيئة وسيلة مناسبة منضبطة، من غير ادعاء أن كل صورة معاصرة واردة بعينها في الحديث.

من إيصال الجواب إلى بناء القدرة

قد تعطي المتعلم جواب مسألة فينتفع به اليوم، وقد تعلّمه مع الجواب كيف يقرأ السؤال ويعرف المرجع ويسأل المختص، فيصبح أقدر على ما يأتي بعده. والتعليم الجيد يجمع بين الحاجتين بحسب المستوى. فالمبتدئ يحتاج إلى وضوح وأساس، والمتقدم يحتاج إلى توسيع النظر وتحمل قدر أكبر من العمل المستقل.

وفي الدعوة إلى الله تتأكد البصيرة والرفق، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]. ليس المقصود أن يكسب الداعي مجلسًا أو يعجب الناس بعبارته، وإنما أن يبين الحق على وجه صحيح، ويرجو هدايتهم. وقد يسمع السؤال مرات فيحتاج إلى صبر متجدد، وقد لا يرى ثمرة عاجلة فلا يستبدل البيان الصادق باستثارة مصطنعة.

ومن الأمانة مراجعة المادة قبل نشرها، وتصحيح ما ظهر فيه خطأ، وتمكين المتعلم من معرفة مصدر ما تلقاه. فإذا أعددت شرحًا أو تسجيلًا أو مادة رقمية، فاجعل الوصول إلى التصحيح ممكنًا. إن أثر التعليم يتسع بالانتشار، ويتسع معه واجب العناية بما

ينتشر. وأجمل ما يتركه المعلم في حياة تلميذه علم صحيح، ورغبة في التعلم، وشجاعة مهذبة في السؤال، وخلق يقتدي به.

الفصل الخامس والعشرون: الكسب والمهنة والمصلحة العامة

العمل في سيرة نبي

قال رسول الله ﷺ: «ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده».[58] يرتفع العمل المشروع بهذا البيان عن نظرة الازدراء، ويظهر في سيرة نبي كريم. فالسعي الذي يعف الإنسان ويقيم نفقة من تلزمه نفقتهم يمكن أن يكون موضع احتساب وأمانة ونفع، وإن لم يسمه الناس نشاطًا خيريًا.

وقد يظن صاحب المهنة أن أثره الصالح يبدأ بعد انتهاء دوام العمل. لكنه في عمله يمس أرزاق الناس وأوقاتهم وصحتهم وثقتهم: يصلح عطلًا، ويضبط حسابًا، ويزرع غذاء، ويؤدي نقلًا مأمونًا، أو ينجز معاملة بالعدل. فإذا صحت مهنته وأداها بحقها واحتسب

58 البخاري، الصحيح، كتاب البيوع، حديث ٢٠٧٢. النص.

الخير، فقد وجد بابًا واسعًا في المكان الذي يقضي فيه قدرًا كبيرًا من عمره.

ولا يتعارض أصل الأجرة المشروعة مع نفع الناس. فالمهني يحتاج إلى ما يقيم حياته ويتيح له الاستمرار، والناس ينتفعون بخدمته. وإنما يدخل الخلل من الغش أو الظلم أو أخذ ما لا يستحق أو ترك الواجب الذي التزم به. وقد يضيف تطوعًا يناسب قدرته، فيجمع بين الكسب والمعونة، من غير أن يلزم جميع الناس بصورة واحدة من البذل.

الكفاية مسؤولية واقعية

بحث ابن تيمية الصنائع التي تحتاج إليها مصالح الناس، كالزراعة والنساجة والبناء، وقرر أن وجوبها يتعلق بالحاجة؛ فإذا لم تقم المصلحة إلا بقيام أهلها بها لم يجز أن يتركوا الناس معطلين، وذكر القيام بها بعوض المثل.[59] ينبه هذا التأصيل إلى أن الحديث عن مصالح الأمة لا يستقيم مع تحقير من يصنعون أسباب قيامها، ولا مع افتراض أن أصحاب الخبرة يجب أن يتحملوا وحدهم كل تكاليف الخدمة.

59 ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج ٢٩، ص ١٩٤–١٩٥ بحسب ترقيم النص الإلكتروني؛ بحث الصنائع والحاجة إليها وعوض المثل. النص.

وتطبيق ذلك على مهنة أو بلد بعينه يحتاج إلى تقدير الحاجة والقدرة والبدائل، وإلى أهل العلم والخبرة. فقد تكون مهارة نادرة في مكان ومستغنى عنها بغيرها في مكان آخر، وقد يسد النقص فريق متكامل. فلا تتحول عبارة «فرض كفاية» إلى شعار يوجّه الناس إلى تخصص بلا معرفة، أو إلى لوم فرد على عجز لا يد له فيه.

وفي خاتمة «كتاب الكسب» من «المبسوط» جاءت العناية بحفظ الفرائض، واجتناب الكسب المحرم، والتحرز من ظلم المسلم والمعاهد، ونقل الكتاب هذا الاتجاه عن محمد بن الحسن، ونسبه إلى مذهب أبي حنيفة وأصحابه.[60] تجمع هذه المعاني بين حركة الإنسان في المعاش وانضباطه بالعبادة والعدل. فالسوق ليس مكانًا خارج الأخلاق، والورع لا يلزم منه ترك أسباب الرزق المشروعة.

الإتقان الذي يراه المستفيد

تظهر جودة العمل في أثره على من يستعمله. قد يكون المستند جميلًا لكنه لا يجيب حاجة صاحبه، وقد يكون الجهاز جديدًا لكن أحدًا لا يستطيع صيانته، وقد تنجز المهمة بسرعة ثم يتضاعف

60 السرخسي، المبسوط، ج ٣٠، خاتمة كتاب الكسب، ص ٢٨٦–٢٨٧ بحسب النص الإلكتروني، في نقل مذهب محمد بن الحسن وأبي حنيفة وأصحابه. النص.

الوقت اللازم لإصلاح عيوبها. ولهذا يحتاج الإحسان المهني إلى فهم المطلوب، ومهارة مناسبة، ومراجعة تتحقق من سلامة الناتج.

ومن صوره أن تبين حدود الخدمة: ماذا تشمل؟ ومتى تنتهي؟ وما تكلفتها؟ وما الذي يحتاج موافقة جديدة؟ فالوضوح يمنع نزاعًا قبل وقوعه. وإذا اكتشفت أنك لا تحسن جزءًا مؤثرًا، استعنت بمن يحسنه أو اعتذرت عنه؛ إذ ليس حفظ سمعة الخبير أولى من حفظ مصالح من وثقوا به.

ويتعدى أثر صاحب المهنة إلى من يتعلمون منه. فإذا علّم المبتدئ الطريق الصحيح، وبيّن له سبب الإجراء، ولم يورثه حيلة الغش، فقد أسهم في رفع مستوى عمل بعده. وإذا أهان المتدرب أو احتكر عنه ما يحتاج إليه، فقد أضعف قدرة الفريق وإن بدا هو وحده أقدرهم. فالأثر المهني الجيد ينجز خدمة اليوم، ويهيئ من يؤديها غدًا بأمانة أكبر.

الفصل السادس والعشرون: الأمانة في المسؤولية المشتركة

الأهلية قبل الرغبة

طلب أبو ذر رضي الله عنه من النبي ﷺ أن يستعمله، فقال له: «يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة»، وبيّن خطرها إلا على من

أخذها بحقها وأدى ما عليه فيها.[61] لا ينتقص هذا التوجيه فضل أبي ذر؛ وإنما يضع المسؤولية في موضعها، فصلاح الرجل لا يعني ملاءمته لكل ولاية. وقد يحسن شخص التعليم ولا يحسن إدارة المال، ويبرع آخر في التنفيذ ولا يحسن الفصل في الخصومات.

وعندما نختار من يدير عملًا نافعًا ينبغي أن ننظر إلى الأمانة والقدرة معًا. المحبة الشخصية لا تكفي، ولا الشهرة، ولا الأقدمية وحدها. ويحتاج صاحب المسؤولية إلى معرفة ما قبل، وإلى صلاحية تمكنه من أدائه، وإلى من يراجعه عند الخطأ. أما تكليفه باسم كبير وتركه بلا أدوات ثم لومه على الفشل فليس عدلًا.

ومن حسن أثر الإنسان أن يعرف متى يتقدم ومتى يعين من هو أصلح. قد يكون تنازله عن الإدارة مع بقائه في الخدمة نافعًا أكثر من تمسكه بمكان لا يحسنه. وليس الانتقال من الواجهة إلى العمل الهادئ هبوطًا في قيمة صاحبه؛ إنما يتحدد الفضل بما يصح من نيته وعمله، لا بقربه من المنصة.

المال الذي لا يملكه القائم عليه

استعمل النبي ﷺ رجلًا على الصدقة، فلما رجع جعل يفرق بين ما جمعه للعمل وما قال إنه أُهدي إليه. فأنكر النبي ﷺ ذلك، وبيّن

61 مسلم، الصحيح، كتاب الإمارة، حديث ١٨٢٥. النص.

أن تلك الهدية اتصلت بالعمل الذي تولاه.[62] يوقظ الخبر حسًا دقيقًا في الأمانة: ليست العبرة بالاسم الذي يعطى للمنفعة، بل بسبب وصولها وحق من يتعلق بها.

ومن تطبيقات هذا الأصل أن يميز القائم على مبادرة بين ماله ومالها، وأن يبين ما يأخذه من أجر مشروع، وأن يتجنب منفعة خاصة يخفيها عمن ائتمنوه. فإذا تعامل مع قريب أو جهة له بها مصلحة، فليكن القرار واضحًا خاضعًا لمراجعة مستقلة مناسبة، حتى لا تختلط رغبة الشخص بحقوق العمل. هذه إجراءات تنظيمية تخدم الأمانة، وتتفاوت تفاصيلها بحسب حجم النشاط وطبيعته.

والشفافية لا تعني نشر أسرار المستفيدين أو كل بياناتهم؛ إنما تعني إتاحة المعلومات التي يحتاج إليها صاحب الحق في الرقابة والمحاسبة. يمكن أن يعرف المنفق أوجه الصرف من غير أن تنكشف حياة المحتاج، وأن تراجع الجهة المختصة السجل في حدود صلاحيتها. فحقوق مختلفة تجتمع، وحسن الإدارة يحفظها جميعًا.

عمل يستمر بتعاون أهله

تتضح المسؤوليات حين يعرف كل مشارك ما عليه، وممن يتلقى المعلومات، ولمن يسلمها، ومتى يطلب المساعدة. وهذا الوضوح

---

62 البخاري، الصحيح، كتاب الأحكام، حديث ٧١٧٤، باب هدايا العمال. النص.

يخفف النزاع ويحفظ الوقت. وقد تكفي في عمل صغير ورقة اتفاق وسجل بسيط، بينما يحتاج العمل الأكبر إلى نظم أوسع. فلا نقيس صلاح المبادرة بكثرة أوراقها، بل بكفاية ما يحفظ الحقوق ويعين على الخدمة.

ويحتاج العمل كذلك إلى تهيئة من يخلف القائم عليه في مهمته عند غيابه. إذا انفرد شخص بكل كلمة مرور ووثيقة وعلاقة لازمة، تعطلت الخدمة بمرضه أو سفره. ومن حسن الأثر توزيع المعرفة وفق الأمانة، وتوثيق ما يحتاجه الفريق، وتربية من يتحملون المسؤولية. بذلك ينتقل العمل من الاعتماد على ذاكرة فرد إلى تعاون أشخاص يعرفون كيف يكمل بعضهم بعضًا.

وفي نهاية المطاف لا تنفصل الإدارة عن التربية؛ فالاجتماع الذي يسمع فيه رأي المخالف، والحساب الذي يصحح بلا مراوغة، والخطأ الذي يعالج بلا إهانة، كلها تعلم العاملين خلقًا عمليًا. وهكذا يصير العمل نفسه مدرسة للأمانة، ويصبح نفعه متصلًا بالخدمة وبالنفوس التي تنضج أثناء أدائها.

الباب السابع: الأثر السيئ وإصلاح ما أفسده الإنسان

الفصل السابع والعشرون: القول والقدوة اللذان ينشران الشر

الأثر ليس تزكية لصاحبه

قد يكون الإنسان مؤثرًا ويكون أثره وبالًا عليه. فقد ينشر معنى فاسدًا، أو يسهل ظلمًا، أو يعلّم حيلة يتوسع الناس بها في أكل الحقوق. ولهذا لا تكفي كثرة من يتبعونه للحكم على صلاحه، ولا تكفي بقاء عبارته طويلًا لتكون لسان صدق. إن سؤال الأثر يتضمن سؤال الاتجاه: إلى أي شيء يقود؟ وبأي طريق؟ وما الذي يتركه في نفوس الناس وأعمالهم؟

قال رسول الله ﷺ: «لا تُقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه أول من سن القتل».[63] لا يذكر الحديث مجرد وقوع جريمة في زمن مضى؛ بل يبين وزر فتح بابها. وفي مقابلة الدلالة على الهدى جاء الوعيد في الدعوة إلى الضلالة بأن على صاحبها من الإثم مثل آثام من تبعه، من غير أن ينقص

63 البخاري، الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، حديث ٣٣٣٥. النص.

ذلك من آثامهم شيئًا.[64] فالمتبوع مسؤول عن دعوته، والتابع مسؤول عن اتباعه.

ولا يتعارض هذا مع قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤]؛ فالداعي إلى الشر يحمل وزر عمله هو، ومن عمله الدعوة والإضلال والتسبب المشروع اعتباره، ولا تنتقل إليه ذنوب غيره لمجرد القرابة أو المعاصرة. وهذه التفرقة تمنع التهاون في الإفساد، وتمنع كذلك توهم المسؤولية عن كل تصرف يصدر من شخص عرفناه أو علّمناه شيئًا مباحًا.

كلمة خرجت ثم اتسعت

أخبر النبي ﷺ أن العبد قد يتكلم بكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالًا يهوي بها في جهنم.[65] وقد اعتاد الناس أن يقيسوا الكلام بما استغرقه من وقت؛ فيعدون العبارة العابرة صغيرة لأنها قيلت في ثوان. لكن صدقها أو كذبها، وما تشتمل عليه من حق أو باطل، وما ينشأ عنها، أمور لا تقاس بطول زمن النطق.

---

64 مسلم، الصحيح، كتاب العلم، حديث ٢٦٧٤، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. النص.

65 البخاري، الصحيح، كتاب الرقاق، حديث ٦٤٧٨. النص.

وفي الوسائل الرقمية قد تصل عبارة إلى من لم يقصده كاتبها، وتنفصل صورة عن سياقها، وتبقى نسخة بعد حذف أصلها. هذه خصائص للوسيلة تزيد الحاجة إلى التثبت، ولا تجعل كل استعمال لها مذمومًا. فمن الخير أن يتأنى المرء قبل إعادة اتهام، وأن يقرأ ما يشارك، وأن يميز الخبر من الرأي، وأن يتحقق من نسبة النصوص، وبخاصة ما ينسب إلى الله ورسوله ﷺ.

وقد يصنع المزاح أثرًا مؤذيًا إذا صار إذلال شخص وسيلة لإمتاع الجمهور. يتعلم المتابع أن السخرية من الضعف مقبولة، ويخشى صاحب الحاجة أن يطلب العون فيصبح مادة للضحك. ومن رقّ قلبه للناس حفظ حدود المزاح، وفرّق بين دعابة يأمن أطرافها وامتهان يستقوي فيه جمع على فرد.

حين تتعلم النفوس من الفعل

القدوة قد تعلم خلاف ما يقوله صاحبها. يسمع الطفل تعظيم الصدق، ثم يرى الكبير يكذب للتخلص من التزام؛ ويسمع المتدرب الحديث عن الأمانة، ثم يرى الخبير يخفي عيبًا لئلا يخسر البيع. تترك هذه المشاهد أثرًا تربويًا؛ لأنها تعرض طريقة عملية في التصرف عند الضغط. وليس كل من شاهد الخطأ سيقلده، لكن احتمال الاقتداء يدعو صاحب المكانة إلى مزيد عناية.

ومن تصحيح القدوة أن يرى من حولك رجوعك أيضًا. الاعتذار المحدد، ورد المال، وبيان المعلومة الصحيحة، وقبول مراجعة الأصغر، كلها تعلّم أن المكانة لا تعصم من الخطأ وأن الاستقامة تشمل تصحيحه. وقد يكون هذا درسًا بالغًا لمن ظن أن الاعتراف ضعف.

فاحرس أول الطريق الذي تدعو إليه الناس. لا تستصغر حيلة محرمة لأن فائدتها قريبة، ولا تجعل كثرة المستعملين لها حجة على سلامتها. وإذا وُفقت إلى منع شر يبدأ من يدك، فقد حفظت نفسك وحفظت من كان يمكن أن يغتر بك، وإن لم يظهر ذلك في سجل الإنجازات المرئية.

الفصل الثامن والعشرون: ظلم الأفراد والإضرار بالجماعة

أعمال صالحة وحقوق لم تؤد

سأل النبي ﷺ أصحابه عن المفلس، ثم بيّن حال من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، وقد شتم وقذف وأكل مالًا وسفك دمًا وضرب، فتؤخذ من حسناته لأصحاب الحقوق، ثم تكون

العاقبة التي حذر منها الحديث.[66] هذا البيان يهدم وهمًا خطيرًا: أن كثرة بعض أعمال الخير تمنح الإنسان حصانة من تبعة ظلمه.

لا يحملنا الحديث على تهوين الصلاة والصيام والزكاة، بل على المحافظة عليها وعلى ثمرتها، بأداء الحقوق واجتناب العدوان. وقد يكون الإنسان معروفًا بالعطاء بعيدًا عن بيته، ويؤذي من تحت يده؛ أو يقيم مشروعًا نافعًا من مال يظلم فيه شريكًا أو عاملًا. فالوجوه الحسنة لا تمحو حق المظلوم بمجرد وجودها، وصاحب الأثر الصالح محتاج إلى نظر صادق في طريقة حصوله على ما يبذل وطريقة معاملته لمن يعينونه.

ويبدأ ظلم الأفراد أحيانًا من سلطة مألوفة: مدير على موظف، ومعلم على طالب، وقريب على من يعتمد عليه. كلما ضعف صوت صاحب الحق اشتدت الحاجة إلى رقابة النفس وإلى طريق يستطيع به التظلم. ومن علامات عدل القوي أن لا يجعل المطالبة بالحق إساءة شخصية إليه، وأن لا ينتقم ممن كشف خطأه.

ضرر يتجاوز صاحبه المباشر

قد تفسد معاملة واحدة ثقة أشخاص كثيرين إذا ارتبطت باسم عمل عام. وربما حمل غش متكرر الناس على الخوف من خدمة

66 مسلم، الصحيح، كتاب البر والصلة، حديث ٢٥٨١. النص.

يحتاجون إليها، أو تسبب إهمال إجراء أساسي في تعطيل مصالح من لا يعرفهم المسؤول. ولهذا لا ينحصر الاعتبار في الربح الذي حققه الفاعل أو الزمن الذي اختصره لنفسه؛ بل ينظر إلى حقوق المتأثرين بقراره.

ومن الصور المعاصرة نشر معلومة غير مأمونة في أمر حساس، أو استغلال بيانات المحتاجين في غرض لم يأذنوا به، أو تقديم تقرير مضلل عن أموال جُمعت لوجه معين. ولا يصح تبرير هذه الأفعال بأن أصحابها يريدون الخير على العموم. المقصد الحسن يستدعي طريقًا صحيحًا، وكلما عظمت الثقة المعطاة للإنسان عظمت أمانته في حفظها.

والضرر قد يقع بغير قصد. حينئذ يُفرّق بين الإثم الذي يتعلق بالقصد والتفريط، وبين حقوق قد يجب تداركها وضمانها بحسب أحكامها. فلا يصح أن يقول الإنسان: لم أقصد، ثم يترك من تضرر بسببه بلا نظر في حقه. كما لا يصح أن يُحكم على كل خطأ بأنه خيانة متعمدة. والعدل يطلب معرفة الوقائع وتمييز الأحوال، ويرد التفاصيل المتنازع فيها إلى أهلها.

كيف تمنع المكانة رؤية الخطأ؟

قد تحيط بالإنسان جماعة لا تنقل إليه إلا المدح، فيظن أن الناس راضون وأن الخدمة نافعة في كل وجه. وقد يسكت المتضرر لأنه

يخشى أن يفقد ما يحتاج إليه، فيُفسر سكوته قبولًا. ولهذا يحتاج القائم على عمل يمس الناس إلى وسائل تسمع الشكوى من غير أن تعرض صاحبها للعقوبة أو الفضيحة.

والمراجعة الصادقة تسأل عن الغائبين أيضًا: من لم يصل إلى الخدمة؟ ومن تركها؟ ومن وجد شروطها أشق من حاجته؟ ليس المقصود إرضاء كل رغبة، فبعض المطالب غير عادلة أو غير ممكنة، وإنما المقصود معرفة موضع القصور قبل الجزم بأن العمل قد وفّى غايته. ويمكن أن تبدأ هذه المعرفة بحوار هادئ وسؤال محدد وسجل يميز الوقائع من الانطباعات.

ومن حماية الأثر أن نقبل إيقاف وسيلة ثبت ضررها، ولو سبق أن بذلنا فيها وقتًا ومالًا. التعلق بما صنعناه قد يجعلنا نحمي المشروع وننسى من أُنشئ لهم. فإذا كان التعديل أو التوقف يحفظ حقوقهم، فهو وجه من وجوه الإصلاح، لا خيانة للعمل الذي أحببناه.

الفصل التاسع والعشرون: محاسبة الضرر والتوبة منه

باب مفتوح ومسؤولية قائمة

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر:

٥٣]. لا يصبح ماضي الإنسان حجة تلزمه البقاء فيه؛ فالتوبة إلى الله مفتوحة، والرجوع عمل حاضر يستطيع أن يبدأ به ما دام في زمن القبول. والرجاء الصحيح يحركه إلى ترك الذنب، لا إلى الاطمئنان إليه.

ومن معالم التوبة أن يقلع عن المعصية، ويندم عليها، ويعزم على ألا يعود، وأن يتخلص من حقوق العباد على الوجه الذي يلزمه. قال النبي ﷺ: «من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم»، وحذر من يوم يؤخذ فيه من الحسنات لأصحاب الحقوق.[67] فإصلاح الأثر يتصل بالمظلوم الحقيقي، لا بصورة المعتذر عند الجمهور وحدها.

ورد المال إلى صاحبه واضح في أصله، لكن طرق معالجة بعض المظالم قد تشتبه: صاحب حق مات، أو مال اختلط، أو غيبة قد يزيد الإخبار بتفاصيلها أذى جديدًا. هذه مسائل تسأل فيها أهل العلم مع بيان الواقع، ولا توضع لها وصفة واحدة تمحو الفروق. المهم ألا يجعل الإنسان تعقد المسألة ذريعة إلى إهمالها؛ يبدأ بمعرفة الواجب ثم يؤديه بصدق واستطاعة.

---

67 البخاري، الصحيح، كتاب المظالم، حديث ٢٤٤٩. النص.

تصحيح ما انتشر

ذكر الله فيمن كتموا البينات استثناء التائبين الذين أصلحوا وبيّنوا: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠]. ومن هداية هذا المعنى أن الإصلاح يتوجه إلى ما أفسده الفعل. فإذا نشرت معلومة خاطئة يتعلق بها عمل الناس، احتاجوا إلى بيان يصل إليهم ويصحح ما تلقوه.

وتطبيق ذلك في النشر المعاصر أن يكون التصحيح مفهومًا ظاهرًا بقدر الحاجة: يحدد موضع الخطأ، ويذكر الصحيح، ويرتبط بالمادة الأصلية إن أمكن، ويطلب تحديث نسخها عند من تداولها. أما عبارة مبهمة في مكان لا يراه من تلقوا الخطأ، فقد لا تؤدي وظيفة البيان. ويختار الإنسان الوسيلة التي تحقق الإصلاح من غير أن يعيد نشر الضرر على جمهور جديد بلا حاجة.

ولا يلزم من هذا أن يقدر على محو كل نسخة أو معرفة كل قارئ؛ فالله لا يكلف نفسًا إلا وسعها. يبذل ما يستطيع من إيقاف وتصحيح ورد حقوق، ويسأل أهل العلم عما أشكل عليه، ويستغفر ربه. والواجب العملي المحدد أجدى من الاسترسال في تصور سلسلة لا نهاية لها تعجزه عن أول خطوة في التوبة.

الاعتذار الذي يثمر عملًا

الاعتذار الصادق يعترف بما وقع، ولا يحمّل المتضرر ذنب شعوره بالأذى. فإذا أخلفت التزامًا، فاذكر ما أخلفته وما تستطيع إصلاحه، ولا تكتف بوصف نيتك الجميلة. وإذا تسبب نظام العمل في تكرار الخطأ، فعدّل النظام مع الاعتذار؛ لأن بقاء السبب يهدد بعودة الضرر.

وقد لا يقبل المظلوم الاعتذار سريعًا، وقد يحتاج استرداد الثقة إلى زمن. فلا تطالبه أن يطوي حقه لمجرد أنك تألمت من عتابه. ابذل ما عليك من إنصاف، وأعطه مساحة مشروعة، ولا تجعل إصلاحك مشروطًا بالتصفيق لك. فغاية التوبة رضا الله وأداء الواجب، ومن ثمرتها أن يصير الإنسان أصدق وأرحم وأقل استهانة بما يمس الناس.

وإذا كان لك تأثير فيمن تابعوك على خطأ، فاستعمل ما تملك من بيان في دعوتهم إلى الرجوع. لا يخجلك أن تنقض كلامًا سابقًا إذا ظهر بطلانه؛ إن الثبات على الحق أرفع من الثبات على صورة لا تخطئ. ومن أجمل آثار التوبة أن تتحول خبرة التعثر إلى يقظة تحفظ بها نفسك وتعين بها غيرك على النجاة، من غير تمجيد للذنب أو استعراض لتفاصيله.

الفصل الثلاثون: من التعثر إلى الاستقامة

من يدل على الطريق بعد أن يفتح باب الرجاء؟

أخبر النبي ﷺ عن رجل قتل تسعًا وتسعين نفسًا، ثم سأل عن التوبة، فدُل على راهب فأغلق عليه الباب، فقتله. ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدُل على عالم، فأخبره أن باب التوبة لم يغلق، وأرشده إلى أرض فيها أناس يعبدون الله ليعبد الله معهم، وأمره ألا يرجع إلى أرض السوء. فانطلق وأدركه الموت في الطريق، وجاء في الخبر أن ملائكة الرحمة قبضته.[68]

القصة بيان لسعة رحمة الله وقبول التوبة الصادقة، وفيها كذلك أثر العلم حين يهدي صاحبه إلى جواب صحيح وطريق يعين على العمل. لم يكتف العالم بأن يزيل اليأس من قلب الرجل؛ دله على صحبة وبيئة تعينانه على ترك ماضيه. وليس في القصة تهوين لجريمة القتل أو إسقاط لأحكام حقوق الآدميين في حياتنا، وإنما تُفهم مع مجموع النصوص التي تحفظ الدماء وتبين التوبة والحقوق.

وقد يحتاج التائب في حياته إلى تغيير ما يجره إلى الذنب: صحبة تشجعه عليه، أو وسيلة يتكرر من خلالها، أو ترتيب يوم يتركه في

---

68 مسلم، الصحيح، كتاب التوبة، حديث ٢٧٦٦، وأصل الخبر عند البخاري، حديث ٣٤٧٠. رواية مسلم.

موضع الضعف نفسه. وتختلف صور التغيير؛ فبعضها ترك علاقة مؤذية، وبعضها طلب مساعدة من أهلها، وبعضها بناء عادة صالحة تعين على الثبات. ويبدأ بما يعرف نفعه ويطيقه، ثم يراجع حاله من غير أن يظن أن العزم يغنيه عن الأسباب.

الصدق الذي لا يختصر الطريق

في خبر كعب بن مالك رضي الله عنه، بعد تخلفه عن غزوة تبوك، اختار الصدق مع النبي ﷺ ولم يلتمس الخروج بكذب يرضي الناس حينًا. ثم مر بالمدة التي جاءت في الخبر حتى أنزل الله توبته وتوبة صاحبيه.[69] ليست القصة وعدًا بأن كل من صدق تزول عنه تبعات خطئه فورًا؛ إنها تعلم أن النجاة الحقيقية لا تبنى على إضافة ذنب إلى ذنب لستر الصورة.

ومن كان قد اعتاد تبرير تقصيره قد يجد الاعتراف ثقيلًا، لكنه يفتح باب معالجة السبب. إذا سميت الإهمال إهمالًا أمكن تنظيم العمل، وإذا سميت الجهل جهلًا أمكن التعلم، وإذا أقرت النفس بحق غيرها أمكن رده. أما الكلمات التي تذيب المسؤولية فلا تعطي صاحبها طريقًا واضحًا للنهوض.

---

69 البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، حديث ٤٤١٨، قصة كعب بن مالك رضي الله عنه في تبوك. استعمل من القصة موضع التسويف ثم الصدق والتوبة. النص.

ومن حسن الصحبة أن يعين الناس التائب على الاستقامة، ويحفظوا له ما استتر، ولا يحبسوه في اسم خطئه القديم. وهذا لا يمنع احتياطًا مشروعًا في موضع أمانة تأثر سابقًا، ولا يلغي حقوق من تضرروا؛ لكنه يمنع التشفي وإغلاق المستقبل في وجه من رجع. فالعدل يحفظ الحقوق، والرحمة تتيح بناء حياة أصلح.

أثر ينمو من عمل اليوم

قد يكثر الإنسان التفكير فيما فاته حتى يترك ما حضر. وحين يفتح الله له باب الرجوع، فليكن أول أثره أداء واجب يومه: صلاة يحافظ عليها، وحق يبدأ برده، وخطأ يكف عنه، وتعلم يحتاج إليه. هذه الأفعال تبني صدق التوبة في الواقع. ولا يشترط أن يعوض جميع سنواته بمبادرة ضخمة تعجزه عن الثبات.

وإذا عثر بعد ذلك فليجدد التوبة، ولا يجعل التعثر برهانًا على استحالة الإصلاح. وليفهم أسبابه فهمًا أمينًا: أكان في القرار ضعف، أم في البيئة عائق، أم في الخطة ما لا يحتمل؟ ثم يتخذ من الأسباب ما يعينه، ويرجو رحمة ربه ويستعين به. فالإنسان لا يستقيم باستغنائه عن الله، بل بافتقاره إليه ومجاهدته على طاعته.

وهكذا يكون النظر في الأثر السيئ طريقًا إلى أثر حسن: نعرف خطر ما ينشر الشر، ونحفظ حقوق الناس، ونرجع عما أخطأنا، ونهيئ أسباب الثبات. ويبقى الباب مفتوحًا للعمل، ما بقي

للإنسان من عمر، وتبقى قيمة الخطوة الصادقة أكبر من صورة كاملة لا تتحرك من مكانها.

الباب الثامن: تطبيقات معاصرة للنفع في الحياة

الفصل الحادي والثلاثون: اختيار الحاجة بالتشاور والمعرفة

من الفكرة الجميلة إلى السؤال الصحيح

قد تبدأ الرغبة في النفع بصورة يحبها صاحبها: فصل دراسي، أو تطبيق، أو لقاء يجمع الناس. وهذه بداية ممكنة، لكنها تحتاج إلى سؤال يختبرها: ما الحاجة التي ستعالجها؟ ومن أصحابها؟ وما الذي جُرّب قبلها؟ فقد يكون أهل الحي بحاجة إلى الوصول إلى خدمة موجودة، بينما ينشغل المتحمس بإنشاء نسخة أخرى منها. وقد تكون المشكلة في وقت الخدمة أو لغتها أو شرط يصعب استيفاؤه، فيكون تعديل صغير أنفع من بناء جديد.

ومن أصول العدل أن تسمع ممن تريد خدمتهم. اسأل عن واقعهم بعبارة لا تملي عليهم الجواب، وامنحهم فرصة ذكر ما يخالف تصورك. ليس المقصود أن تصبح كل رغبة حكمًا ملزمًا، وإنما أن تكون معرفتك أقرب إلى الحقيقة. وتكامل شهادة المستفيد مع

رأي المختص ومع ما يمكن التحقق منه من معلومات، ثم توزن الفكرة بميزان الشرع والقدرة والمصلحة.

والاستماع لا يحتاج دائمًا إلى دراسة كبيرة. قد تكفي في حاجة محلية محدودة لقاءات قصيرة مع أصحابها ومع من يقدمون الخدمة، ثم تجربة مأمونة يتبين بها موضع النقص. ويزداد قدر البحث كلما عظم المال المعرض للضياع، أو اتسع عدد المتأثرين، أو اشتد ضرر الخطأ. فلا نسوي بين إعداد نشرة إرشادية بسيطة وإطلاق خدمة تتعلق بصحة الناس أو أموالهم.

الاستفادة من أدوات التصميم الحديثة

يعرض دليل «التفكير التصميمي» في مدرسة التصميم بجامعة ستانفورد أدوات تدور حول فهم المستفيد، وتحديد المشكلة، وتوليد الأفكار، وبناء نموذج أولي، واختباره. وهو يقدمها أدوات قابلة للتطوير، لا وصفة جامدة يبدأ كل إنسان منها بالخطوة نفسها.[70] ويمكن الإفادة من هذا التنظيم في بعض المبادرات؛ إذ يعين على الانتقال من الافتراض إلى ملاحظة الواقع وتجربة الحل.

---

70 Stanford d.school، Design Thinking Bootleg، عرض أنماط العمل الخمسة. أدوات تنظيم وتجريب بشرية، والإفادة التطبيقية في المتن من صياغة الكتاب. تاريخ الاطلاع: ١٣ سبتمبر ٢٠٢٦. المصدر الرسمي.

هذه أدوات خبرة بشرية في تنظيم العمل؛ لا نستمد منها حكم العبادة، ولا نمنحها سلطة على النصوص. ننتفع منها بما يصح ويناسب الحاجة، ونعدل ما يحتاج إلى تعديل. فقد يُظهر الحوار أن الفكرة غير لازمة، أو يكشف الاختبار أن وسيلتها مكلفة، فيتغير القرار. والرجوع حينئذ علامة انتفاع بالمعرفة.

ولنأخذ مثالًا مقترحًا: مجموعة ترغب في مساعدة كبار السن على استخدام خدمة إلكترونية. يمكن أن يبدأ العمل بسماع صعوباتهم الفعلية: هل المشكلة قراءة التعليمات، أم فهم المصطلحات، أم امتلاك الجهاز، أم الخوف من الاحتيال؟ ثم يعد الفريق شرحًا قصيرًا ويختبر وضوحه معهم. بهذا تتحدد الخدمة، وقد يتبين أن جلسة مرافقة منظمة أنفع من مقاطع كثيرة لا تصل إليهم.

ترتيب الحاجة والقدرة

بعد فهم المشكلة ينظر الإنسان في قدرته وحقوقه. قد يكون نفعًا مطلوبًا في نفسه، لكنه لا يحسن أداءه أو لا يملك الوقت اللازم له؛ فيكون دوره المساعدة في جزء معلوم أو الدلالة على غيره. وقد يكون قريبًا من حاجة لا ينتبه لها أصحاب الموارد الكبيرة، فيقدر على خدمة دقيقة تعجز عنها المبادرات العامة.

ويساعد في الاختيار وصف مكتوب موجز يبين المستفيد، والمشكلة، والخدمة، ومن يتولاها، والموارد اللازمة، وما يدل على

نجاحها. هذه الكتابة تكشف الغموض مبكرًا. فإذا عجز الفريق عن بيان ما سيتغير للمستفيد، فربما كان يحتاج إلى مزيد من الفهم قبل الدعوة إلى التمويل أو التطوع.

وتظهر المفاضلة بين البدائل حين نسأل: هل نساعد عملًا قائمًا؟ أم نصل الخدمة بمن انقطع عنها؟ أم ننشئ صورة جديدة لحاجة لم تُسد؟ قد تختلف الإجابة من حي إلى آخر. فالإبداع ليس مجرد الابتعاد عن المألوف؛ إنه العثور على طريقة نافعة صحيحة في موضعها. وقد يكون أجمل ابتكار أن تزيل تعقيدًا اعتاده الجميع، أو تجمع جهدين كان كل منهما يعمل وحده.

الفصل الثاني والثلاثون: مبادرات التعليم والمهارات

ثلاثة عوائق، وثلاث خبرات نافعة

تقدم «أوبن ستاكس» تجربة في إتاحة المواد التعليمية؛ وهي مبادرة غير ربحية تتبع جامعة رايس، وتنشر كتبًا دراسية مجانية خضعت لمراجعة أكاديمية، وتتيح قراءتها أو تنزيلها. يقوم نموذجها على مساهمة مؤلفين ومراجعين ودعم يمكّن من إتاحة المحتوى

للمتعلمين.[71] والوجه الذي يهمنا هنا أن تكلفة الحصول على المادة يمكن تخفيفها بعمل منظم يجمع التأليف والمراجعة والإتاحة.

أما «كوليبري»، من مؤسسة «ليرننغ إكوالتي»، فيتناول عائق الاتصال: منصة تعلم صُممت للعمل دون اتصال دائم بالإنترنت، ويمكن توزيع المحتوى بعد تحميله الأولي بوسائط محلية، مع أدوات يستخدمها المعلم في تنظيم الدروس ومتابعة التعلم.[72] فلا يصبح ضعف الشبكة سبباً حتمياً لانقطاع كل تعلم رقمي، وإن بقيت الحاجة إلى أجهزة مناسبة ومحتوى ومعلم وصيانة.

وفي المجال العربي تعرض «إدراك» تجربة مساقات إلكترونية باللغة العربية، أطلقتها مؤسسة الملكة رانيا للتعليم والتنمية. وتذكر المنصة إتاحة مساقات مجانية، وتطوير محتوى بمشاركة خبراء وأكاديميين، وتقديم مواد مترجمة أيضًا.[73] والوجه المستفاد هو العناية بلغة المتعلم وإتاحة المعرفة له عبر وسيلة يستطيع الوصول إليها.

---

71 OpenStax، About us، تعريف المبادرة وموادها وطريقة إتاحتها. تاريخ الاطلاع: ١٣ سبتمبر ٢٠٢٦. المصدر الرسمي.

72 Learning Equality، About Kolibri، وصف المنصة وطرق العمل دون اتصال دائم بالشبكة. تاريخ الاطلاع: ١٣ سبتمبر ٢٠٢٦. المصدر الرسمي.

73 إدراك، «عن إدراك»، وصف المنصة العربية والمساقات. تاريخ الاطلاع: ١٣ سبتمبر ٢٠٢٦. المصدر الرسمي.

هذه أوصاف لنماذج كما تعرضها جهاتها، وليست حكمًا بأن كل مادة فيها مناسبة لكل قارئ، ولا دليلًا مستقلًا على مقدار التحسن الذي أحدثته لكل مستفيد. وهي تكشف ثلاث حاجات متمايزة: كلفة المادة، والوصول التقني، واللغة. وقد تجتمع في مكان واحد، فيحتاج الحل إلى أكثر من وسيلة.

تطبيق محلي يبدأ من حجم محتمل

يمكن لجماعة من المعلمين، على سبيل المثال المقترح، إعداد مادة قصيرة في مهارة أساسية يحتاجها طلاب يعرفون مستواهم، ثم مراجعتها وتجربتها قبل توسيعها. لا يلزم أن تبدأ بموسوعة؛ قد تكون مجموعة تمارين صحيحة مع شرح واضح، ودليل للمعلم، وطريقة يعرف بها هل فهم الطالب. ويزداد نفع المادة حين يمكن تحديثها وتصحيح أخطائها بدل أن تبقى نسخ قديمة بلا متابعة.

وإذا كان المحتوى من إعداد غيرهم، لزم النظر في إذن استعماله وشروطه؛ فمجانية القراءة لا تعني دائمًا حرية النسخ والتعديل والنشر. ويمكن للفريق أن يختار مادة مرخصة على وجه يناسب عمله، أو يطلب الإذن، أو ينتج مادة أصلية. وفي جميع الأحوال تبقى الأمانة في نسبة الجهد إلى أصحابه جزءًا من رسالة التعليم.

وقد يتصل الأثر بتعليم مهارة عملية: قراءة تعليمات العمل، أو حساب نفقات نشاط صغير، أو استعمال برنامج لازم لمهنة، أو

الاستعداد لتدريب مهني. يختار المعلم ما يحسنه، ويجعل المهارة محددة، ويتيح ممارسة يلاحظها. فإكمال ساعات الحضور وحده لا يثبت القدرة، والشهادة لا ينبغي أن تعد بما لم يتعلمه صاحبها.

ومن الأمثلة التي يمكن تطويرها تيسير تعلم قيادة المركبات لمن يعجز عن تكلفته، من خلال جهات ومدربين مؤهلين، وبمراعاة الأنظمة والسلامة والحاجة الفعلية. وليس نفعها مقصورًا على إصدار رخصة؛ فقد تعين على الوصول إلى عمل أو خدمة. لكن صلاح الفكرة يتوقف على حال المستفيد وتوافر وسيلة استعمال المهارة وتكاليفها اللاحقة. فالمثال يفتح مجال التفكير، ويحتاج قبل التنفيذ إلى دراسة محلية مستقلة.

المتعلم شريك في نجاح التجربة

قد يختلف وقت التعليم المناسب لمن يرعى طفلًا عن وقت طالب متفرغ، وتختلف وسيلة من يقرأ بسهولة عن وسيلة من يحتاج إلى شرح صوتي أو خط أكبر. لذلك يسأل الفريق عن العوائق المؤثرة ويعدل ما يستطيع. وبعض التعديلات منخفض الكلفة: تقسيم الدرس، أو توفير ملخص واضح، أو جعل المراجعة في موعد معلوم، أو إتاحة سؤال بعيدًا عن الحرج أمام الجمع.

وللنساء والرجال، وللصغار والكبار، حاجات وقدرات تتداخل وتختلف؛ فلا نحصر فئة في صورة واحدة من العطاء أو التلقي. قد

تكون امرأة صاحبة خبرة تقنية نافعة، وقد يكون رجل متفرغًا لرعاية قريب يحتاج إلى فرصة تعلم مرنة. وينظر إلى الواقع الفردي مع مراعاة الأحكام الشرعية، ثم تصمم الخدمة بما يرفع العائق الحقيقي.

ومن حسن ختام التجربة أن يعرف المتعلم خطوته التالية: مادة تراجع، أو تدريب يحتاج إليه، أو جهة يتواصل معها. ويعرف الفريق كذلك ما نجح وما يحتاج إلى إصلاح. بذلك يصير التعليم سلسلة متماسكة، ولا ينتهي أثر اللقاء بخروج الحاضرين من المكان.

الفصل الثالث والثلاثون: خدمة المجتمع بالوقت والخبرة والتقنية

خبرة تصل من بعيد

تعرض خدمة التطوع عبر الإنترنت في برنامج متطوعي الأمم المتحدة نموذجًا يربط الجهات بأصحاب مهارات يقدمون عملًا عن بُعد، من خلال مهام موصوفة واختيار للمشاركين وتعاون يعقبه تقويم. ولكل مهمة متطلباتها وشروطها.[74] نستفيد من صورة التنظيم:

74 برنامج متطوعي الأمم المتحدة، Become an Online Volunteer، وصف الخدمة وتنظيم المهام؛ تراجع شروط كل مهمة وقت التقديم. تاريخ الاطلاع: ١٣ سبتمبر ٢٠٢٦.

يمكن أن يُبذل الوقت والخبرة من غير انتقال دائم إلى مقر الخدمة، وأن يكون التكليف محدودًا معلوم النتيجة.

ومن التطبيقات المقترحة لهذا المعنى أن يعين محاسب مؤهل مبادرة صغيرة على ترتيب سجلها، أو يراجع محرر مادة تعليمية، أو يترجم متقن لغة إرشادات نافعة أُذن في ترجمتها، أو يساعد مختص تقني في صيانة وسيلة اتصال. ويختار المسلم المهمة المباحة المناسبة لخبرته، ويتحقق من الجهة وحقوق العمل وشروطه. فوجود منصة معروفة لا يغني عن النظر في حقيقة كل مهمة.

والعمل عن بُعد يحتاج إلى ضبط مثل العمل الحضوري: نطاق واضح، وموعد تسليم، ووسيلة للسؤال، وشخص يراجع الناتج. وقد يكون اتفاق صغير على مهمة واحدة أنجح من وعد عام بالمساعدة الدائمة. وإذا كان المتطوع مشغولًا برعاية أسرة أو مقيد الحركة، أمكن أن تناسبه مهمة محدودة المواعيد، مع حفظ حقه في الراحة والتزاماته الأصلية.

إزالة العائق الرقمي

توضح مبادرة إتاحة الويب في اتحاد الشبكة العالمية «W3C» أن طريقة بناء المواقع قد تتيح الانتفاع للأشخاص ذوي الإعاقة أو

المصدر الرسمي.

تمنعهم منه. ومن أمثلتها النص البديل للصور، وإمكان استخدام لوحة المفاتيح، وتوفير نص للمحتوى الصوتي. وتؤكد أن أدوات الفحص الآلي وحدها لا تكفي للحكم الكامل على الإتاحة؛ بل تحتاج إلى تقويم بشري عارف.[75]

ومن ذلك نستنبط مجالًا عمليًا للنفع: مراجعة مادة أو خدمة مأذون في العمل عليها، وتحديد عوائق الوصول فيها، ثم إصلاحها بمشاركة من يستعملها. قد يصبح درس مسموع قابلًا للانتفاع لمن لا يسمعه إذا توفر له نص دقيق، وقد يتحسن نموذج خدمة حين تتضح حقوله وتعليماته. هذه أمثلة تطبيقية، ويحتاج تنفيذها المتقن إلى من يعرف معاييرها وتقنياتها.

ولا ينبغي أن نتحدث عن ذوي الإعاقة باعتبارهم متلقين للمعونة وحدها. منهم المعلم والمبرمج والكاتب وصاحب الخبرة، وقد يكون أحدهم أدرى من الفريق بالعائق وطريقة إصلاحه. فإشراكه في التصميم والمراجعة يحفظ حقه ويزيد جودة العمل، ويغير النظرة من افتراض العجز العام إلى معرفة قدرة محددة وحاجات محددة.

---

75 W3C Web Accessibility Initiative، Introduction to Web Accessibility؛ تعريف الإتاحة وأمثلتها وحدود التقويم الآلي. تاريخ الاطلاع: ١٣ سبتمبر ٢٠٢٦. المصدر الرسمي.

التقنية وسيلة تتبع غايتها

قد تسهل الأدوات الرقمية الوصول إلى الناس وتنظيم المواعيد والمواد، لكنها تخلق مسؤوليات تتعلق بالمعلومات والخصوصية واستمرار الخدمة. ومن الأمانة جمع ما يحتاجه العمل فقط، وقصر الاطلاع على من يلزم، وبيان سبب الطلب للمستفيد. وقد تكون ورقة محفوظة أو اتصال مباشر أنسب من منصة معقدة إذا كان عدد الحالات قليلًا والحاجة محدودة.

ويصح الاستعانة بأدوات آلية في بعض أعمال التحرير والبحث الأولي والتنظيم، على أن يراجع الإنسان ما يعتمد عليه، ولا ينسب جوابًا إلى مصدر لم يتحقق منه. وتتأكد هذه العناية في النصوص الشرعية والمعلومات التي يبني الناس عليها قرارات مهمة. فالسرعة لا تمنح المعلومة صحة، وصاحب النشر مسؤول عن اختياره ما يقدمه للناس.

ومن النفع التقني أيضًا العناية باستمرار ما أنشئ: من يصون الحساب؟ ومن يرد على السؤال؟ وكيف تُسلَّم البيانات إلى المسؤول المخول إذا تغير الفريق؟ قد يفرح الناس بتطبيق جديد ثم يتعطل بعد أشهر لأن كلفة تشغيله لم تُحسب. ولهذا يُنظر إلى كلفة الخدمة طوال مدة الالتزام، لا إلى كلفة البداية وحدها.

ولا يحتاج كل صاحب أثر إلى امتلاك مهارة تقنية. يستطيع أن يصف حاجة يعرفها، أو يختبر وضوح تعليمات، أو يساعد مختصًا على فهم واقع الناس. ومن جمع المعرفة الفنية بالمعرفة الإنسانية اقترب من خدمة يقدر المستفيد على استعمالها في حياته، وهي الغاية التي ينبغي أن يبقى الفريق ينظر إليها.

الفصل الرابع والثلاثون: تقويم النتائج وتطوير التجربة

ماذا تغير للناس؟

إذا انتهى نشاط، فمن الطبيعي أن نسأل كم حضر وكم أنفق وكم ساعة بُذلت. لكن هذه الأعداد تصف ما فعلناه، ولا تكفي وحدها لبيان ما انتفع به الناس. فقد يحضر الطالب دروسًا ولا يفهم المهارة، وقد تصل المعونة إلى أسرة في وقت فاتت فيه الحاجة التي جُمعت لها. لذلك نسأل كذلك: ما التغير الذي قصدناه؟ وهل ظهرت أماراته؟ وما الذي حال دونه؟

هذا السؤال يعين على الأمانة في الوصف. من قال إنه درّب عشرين شخصًا ينبغي أن يبين معنى التدريب الذي قدمه، ولا يحول العدد تلقائيًا إلى عشرين فرصة عمل. ومن نشر مادة لا يعلم مقدار استعمالها يصف ما نشره، ولا يخترع أثرًا لم يتحقق منه. ويمكن أن يذكر رجاءه وتوقعه، على أن يميزهما من الواقع الذي عرفه.

وتعرض مؤسسة «نيستا» إطارًا يتدرج في قوة الأدلة: يبدأ بتوضيح كيف يتوقع أن تحدث المنفعة، ثم جمع بيانات عنها، ثم وسائل أقوى لتقدير أثر التدخل وإمكان تكراره. وتؤكد تناسب مستوى التقويم مع مرحلة العمل.[76] ومن فائدته العملية ألا تُعامل الفكرة المبشرة كما تعامل النتيجة التي اختُبرت جيدًا، وألا يطلب من تجربة ناشئة ما لا يلائم حجمها.

مثال في تعليم مهارة

لنفترض أن مبادرة مقترحة تريد مساعدة بالغين على قراءة تعليمات مرتبطة بعملهم. عدد اللقاءات يصف النشاط، والحضور يصف الوصول، وقدرة المتعلم على قراءة نموذج مناسب وفهمه أقرب إلى النتيجة المطلوبة. ويمكن مقارنة أدائه في بداية التعلم ونهايته بوسيلة عادلة مناسبة، مع مراعاة خصوصيته وألا يتحول التقويم إلى إذلال.

لكن التحسن الذي ظهر بعد الدروس قد تسهم فيه أسباب أخرى: ممارسة في العمل، أو تعليم من قريب، أو اختلاف بين من أكملوا ومن انسحبوا. لذلك لا نجزم بأن المبادرة وحدها سببت

---

76 Nesta، Standards of Evidence؛ التدرج في الأدلة وتناسب التقويم مع مرحلة المبادرة. الأمثلة التعليمية اللاحقة مقترحة للتوضيح، وليست نتائج دراسة أجريت لهذا الكتاب. تاريخ الاطلاع: ١٣ سبتمبر ٢٠٢٦. المصدر الرسمي.

كل تغير ما لم يكن لدينا تقويم يسمح بذلك. ويكفي في البداية وصف متواضع دقيق، ثم الاستعانة بأهل التقويم إذا كبر العمل وأصبح ادعاء أثره أساسًا لقرار مهم.

ويسأل الفريق عمن لم تتحسن حاله أو لم يستمر. قد تكون الأوقات غير مناسبة، أو المادة أعلى من مستواه، أو مكان اللقاء بعيدًا. وقد لا يكون سبب الانسحاب متعلقًا بالخدمة أصلًا. الاستماع يفتح بدائل، أما تصنيف كل من ترك بأنه غير جاد فيغلق باب التعلم ويخفي عيوبًا محتملة في التصميم.

ما لا تقيسه الأرقام

نقيس ما نستطيع من نتائج الخدمة حتى نحسنها، لكن القبول عند الله والإخلاص وثواب العمل ليست أرقامًا نصنع لها جدولًا. وقد يؤدي الإنسان واجبه بصدق ولا يرى ثمرة عاجلة، كما قد ينتشر عمل مع فساد قصد صاحبه. ولهذا لا يصح أن نساوي بين نجاح تنظيمي ظاهر وبين تزكية شرعية شاملة.

وتبقى بعض المنافع صعبة القياس الدقيق: شعور آمن بعد موقف مخيف، أو تشجيع أعان على الاستمرار، أو قدوة رآها طفل ولم يتحدث عنها. يمكن الاستماع إلى شهادات الناس ووصفها بأمانة، من غير تضخيمها إلى برهان على كل ما نرجوه. فحدود المعرفة لا تمنع العمل، لكنها تهذب ما نقوله عنه.

كما ينبغي أن يتناسب التقويم مع كلفته. لا نثقل محتاجًا بأسئلة طويلة لعمل بسيط، ولا نجمع معلومات حساسة لنستعملها في عرض جميل. نسأل عما يساعد على قرار، ونحفظ ما يلزم، ونحذف ما لا حاجة إليه على الوجه المناسب. وكلما حسنت صياغة السؤال قلّ العبء وزادت فائدة الجواب.

التطوير والاستمرار والتوقف

بعد المراجعة قد نقرر توسيع الخدمة، أو تعديلها، أو دمجها في عمل قائم، أو إنهاءها بعد تمام غرضها. لكل قرار أدلته وحقوقه. فإذا تعلقت بها حاجة مستمرة، رُتّب الانتقال بقدر الاستطاعة وبُيّن للمستفيدين ما سيحدث. وإذا انتهى الغرض المحدد، جاز أن تنتهي المبادرة وقد أدت نفعًا كاملًا في زمنها.

ولا يلزم من الرغبة في أثر يبقى أن تبقى كل وسيلة إلى الأبد. قد يحسن أثر درس قصير سنوات، وقد يستمر كيان طويلًا وهو يستهلك الموارد بلا خدمة كافية. فنطلب دوام الخير، ونراجع الوسيلة التي تحمله. ويستطيع صاحب الخبرة أن يورث فريقه معرفة أسباب النجاح والتعثر، فيكون ما تعلموه معينًا لمن يأتي بعدهم.

وهنا تلتقي المحاسبة الإيمانية بالمراجعة العملية من غير أن تتطابقا: نسأل الله القبول ونجاهد الرياء، ونسأل الناس عما انتفعوا به ونصحح العمل. نحفظ الفرائض والحقوق، ونستعمل العلم والخبرة

في تحسين الوسيلة. وبهذا يكون التطوير جزءًا من الأمانة، وتكون المتابعة عناية بمن نخدمهم، لا بحثًا متصلًا عن أرقام تمدحنا.

خاتمة: خير تفعله وأنت على الطريق

ربما أغلقت هذا المجلد ولم تملك مالًا زائدًا، ولم يتغير وقتك الضيق، ولم تُحل كل المشكلات التي تعرفها في بيتك أو مجتمعك. لكنك تستطيع أن تخرج منه بنظر أوضح إلى ما بين يديك: حق حاضر تؤديه، وعلم تحتاج إليه فتتعلمه، وخطأ تكف عنه، ومعروف تقدر عليه فلا تحتقره. ومن هذه البداية الصادقة ينمو الطريق.

بدأنا من العبودية؛ لأن الإنسان لا يعرف وجهته الصحيحة إذا فصل حياته عن ربه. ثم نظرنا في صلاح القلب والعمل، وفي الحقوق التي تحيط به، وفي نفع الناس والعلم والمهنة، وفي الأثر الذي يضر وسبيل إصلاحه. وهذه المعاني تتداخل في اليوم الواحد؛ فليست الحياة أبوابًا مغلقة ينتهي أحدها حتى نبدأ الآخر. قد تمتحن نيتك وأمانتك ورفقك في خدمة واحدة، وقد تحفظ حقًا عائليًا فتتعلم من أدائه ما يحسن عملك مع غير أهلك.

وليس المطلوب أن تصير نسخة من رجل اشتهر بعلم، أو امرأة عرفت ببذل، أو صاحب مؤسسة اتسع نفعها. تأمل ما فتح الله لك من قدرة، وما ألزمك من حق، وما تستطيع تعلمه، ثم اختر سبيلًا مشروعًا تخدم فيه بصدق. تفرح بخير غيرك وتعين عليه، وتعلم أن الأبواب تتكامل وأن الفضل لله يؤتيه من يشاء.

وقد يكون في حياتك من لا ترى أثره كاملًا: أم علمتك كلمة، أو أب صبر على نفقتك، أو معلم أعاد الشرح حين لم تفهم، أو عامل أمين أنجز خدمة لم تنتبه إليها. إذا تذكرتهم علمت أنك تعيش في امتداد معروف سبقك. ومن شكره الدعاء لأهله، وحفظ حقوقهم، وأن تحسن إلى من تقدر على إحسانك إليه اليوم.

وحين تخطئ، لا تحمِ صورة صاحب الأثر على حساب الحق. ارجع، واعتذر، ورد ما عليك، وصحح ما نشرته، واطلب من يعينك. قد يصبح صدق رجوعك خيرًا يتعلمه من حولك، وقد يمنع تكرار ضرر لم تكن تتنبه إليه. وليس في معرفة خطر الأثر دعوة إلى الشلل؛ بل دعوة إلى علم يحرس المبادرة، ورجاء يحمل على التوبة، وتواضع يسمح بالمراجعة.

إن بعض المعروف ينقضي زمن فعله وتبقى ثمرته في حياة إنسان، وبعضه يهيئ من يحمل الخير بعد صاحبه. وهنا يلوح سؤال المجلد التالي: ما الذي يبقى للمرء بعد انقطاع قدرته على العمل بالموت؟ وكيف يعتني بالعلم النافع والصدقة الجارية والذرية الصالحة، وبما يصل إليه من الخير على هداية الكتاب والسنة؟ ذلك باب يتصل بما عشناه هنا، وتبدأ أسبابه في الحياة.

أما أنت الآن فما زلت على الطريق. لك يوم حاضر، وفيه نعم وواجبات وفرص، ولك رب كريم تسأله الإعانة والقبول. فلا

تشترط أن تعرف كل ما سيؤول إليه عملك حتى تؤدي ما ظهر لك من الخير، ولا تجعل جهل الناس باسمك حجابًا بينك وبين طاعة يعلمها الله. اعمل بعلم، واحتسب بصدق، وأحسن ما استطعت، وأصلح إذا أخطأت.

اللهم أعنّا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، وأصلح قلوبنا وأعمالنا، واجعلنا مفاتيح للخير بما يرضيك، واحفظنا من ظلم عبادك ومن القول عليك بغير علم. اللهم تقبل ما كان صوابًا خالصًا، واغفر لنا تقصيرنا، واهدنا لإصلاح خطئنا، واجعل ما نتعلمه حجة لنا لا علينا، واغفر لمن علمنا وأحسن إلينا، ولآبائنا وأمهاتنا وللمسلمين والمسلمات.

هذا الكتاب وقف لله تعالى.

ثبت المصادر والمراجع

القرآن الكريم وكتب التفسير

القرآن الكريم. أُثبت اسم السورة ورقم الآية بجانب النص القرآني في المتن.

الطبري، محمد بن جرير: جامع البيان عن تأويل آي القرآن. مواضع تفسير هود: ٦١، والشعراء: ٨٤. النص الإلكتروني لتفسير هود، وتفسير الشعراء.

ابن كثير، إسماعيل بن عمر: تفسير القرآن العظيم. تفسير يس: ١٢. النص الإلكتروني.

القرطبي، محمد بن أحمد: الجامع لأحكام القرآن. تفسير هود: ٦١. النص الإلكتروني.

كتب الحديث

البخاري، محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح. المواضع المستعملة موزعة على كتب بدء الوحي، والعلم، والأذان، والزكاة، والصوم، والتهجد، والبيوع، والمزارعة، والمساقاة، والصلح، والمظالم، والهبة، والجهاد والسير، وأحاديث الأنبياء، والمغازي، وفضائل القرآن، والنفقات، والأطعمة، والأدب، والرقاق، والأحكام. أرقام الأحاديث وروابطها مثبتة في الحواشي. الجامع الصحيح.

مسلم بن الحجاج: الصحيح. المواضع المستعملة من كتب الإيمان، والمساجد، وصلاة المسافرين، والزكاة، والأقضية، والإمارة، والعلم، والقدر، والبر والصلة، والذكر والدعاء، والتوبة، والزهد والرقائق. أرقام الأحاديث وروابطها في الحواشي. صحيح مسلم.

الترمذي، محمد بن عيسى: الجامع. أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، حديث ٢٤١٧، مع إثبات حكم الترمذي في موضعه. النص.

الألباني، محمد ناصر الدين: صحيح الترغيب والترهيب، حديث ١٢٦. استُعين بنقل الموسوعة الحديثية في الدرر السنية لحكمه على حديث السؤال عن العمر والعلم والمال والجسم، ولم تُنسب للمؤلف مراجعة مستقلة للطبعة الورقية. موضع نقل الحكم.

كتب الفقه والتزكية وشرح الحديث

الشافعي، محمد بن إدريس: الرسالة. باب العلم، في علم العامة وما تقوم به الكفاية. النص الإلكتروني.

السرخسي، محمد بن أحمد: المبسوط. خاتمة كتاب الكسب، في حفظ الفرائض واجتناب الكسب المحرم والظلم، ونقل مذهب محمد بن الحسن وأبي حنيفة وأصحابه. النص الإلكتروني.

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم: العبودية، ضمن مجموع الفتاوى، ج ١٠. افتتاح بيان معنى العبادة. النص الإلكتروني.

ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج ٢٩. موضع الصنائع التي تحتاج إليها مصالح الناس، وتعلق وجوبها بالحاجة، وعوض المثل. النص الإلكتروني.

ابن القيم، محمد بن أبي بكر: إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان. الباب الحادي عشر، فصل محاسبة النفس قبل العمل وبعده. النص الإلكتروني.

ابن القيم: مدارج السالكين. ج ١، فصل اختلاف أهل مقام إياك نعبد في أفضل العبادة، ومراعاة مقتضى الوقت والحال. النص الإلكتروني.

النووي، يحيى بن شرف: المجموع شرح المهذب. المقدمة، باب أقسام العلم الشرعي، القسم الثاني: فرض الكفاية. النص الإلكتروني.

النووي: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج. كتاب الزهد والرقائق، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم. النص الإلكتروني.

السفاريني، محمد بن أحمد: غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب. مطلب النهي عن طلب العلم للرياء وإخلاص النية فيه لله تعالى، في نقل كلام الإمام أحمد عن مهنا. النص الإلكتروني.

مصادر التجارب والأدوات المعاصرة

Stanford d.school: Design Thinking Bootleg. التعريف بالأدوات وأنماط التفكير التصميمي. المصدر الرسمي.

OpenStax، جامعة رايس: About us. تعريف المبادرة وموادها التعليمية. المصدر الرسمي.

Learning Equality: About Kolibri. وصف بيئة التعلم وأدوات العمل دون اتصال دائم بالإنترنت. المصدر الرسمي.

إدراك: عن إدراك. التعريف بالمنصة والمساقات العربية. المصدر الرسمي.

برنامج متطوعي الأمم المتحدة: Become an Online Volunteer. تنظيم التطوع عبر الإنترنت. المصدر الرسمي.

W3C Web Accessibility Initiative: Introduction to Web Accessibility. مبادئ إتاحة الويب وأمثلتها وتقويمها. المصدر الرسمي.

Nesta: Standards of Evidence. التدرج في قوة الأدلة وتناسب التقويم مع مرحلة المبادرة. المصدر الرسمي.

تاريخ الاطلاع على المصادر الإلكترونية المعاصرة: ١٣ سبتمبر ٢٠٢٦. تُراجع التفاصيل المتغيرة وشروط الخدمات لدى جهاتها عند التطبيق.